
روايات مصرية للجيب
49
د. أحمد خالد توفيق
فانتازيا
Looloo
www.dvd4arab.com
يوم
غرق الأسطول

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم

المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل ونحن معها العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة، أو تهدد المقصلة عنقها، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى: لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى: لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

1ـ البحث عن شريف ..

كما هى العادة أحيانًا لم تستفق (عبير) ، ولم تخرج من هذا الحلم لتمر بالمراحل التقليدية الاسكتشافية..

لقد وجدت أنها تقف فى تلك المساحة الشاسعة العارية من أية معالم .. لا يمكن أن تقول إن هذه صحراء .. ليست صحراء جليدية .. ليست حتى ذلك البياض المريح الذى رأيناه فى فيلم (ماتريكس) .. إنه الخواء بالمعنى الحرفى للكلمة .. لا شىء .. معنى فيزيائى مطلق ..

تمشى مذعورة ..

لو لم تجد المرشد فكيف تخرج من هنا ؟ كانت تقرأ فى الماضى عن عذاب (تانتالوس) البطل الإغريقى وكيف وجد نفسه فى عالم الفراغ عاجزًا عن عمل أى شىء .. فيما بعد وصف العالم السويدى العبقرى (أندرس أكبرج) عذابه مع مادة كيميائية غامضة بأنه عذاب (تانتالوس) .. هكذا كان أول اسم أطلقه على المادة عندما عرف كنهها هو (تنتاليوم) ..

أصابها المزيد من الذعر .. الحقيقة أنها تتصرف بالضبط كالمجانين .. كل المجانين لهم عالم خصوصى متكامل المنطق والمقاييس .. هم وحدهم يزورونه ويعيشون أحداثه ، فيضحكون

على دعابة قالها هذا ، ويغضبون لإهانة وجهها ذاك .. الناس ترى المشهد فتمصص الشفاه وتحمد الله على نعمة صحة العقل والبدن .. بينما المجنون يرى أن كل شىء منطقى ..

هل هى مجنونة ؟

فانتازيا لا وجود لها إلا على جهاز الكمبيوتر، وجهاز الكمبيوتر قد تلف .. إذن لا وجود لفانتازيا إلا فى عقلها .. إذن هى مخبولة ..

ثم تذكرت كلام المرشد عن أن المريض العقلى والأديب كلاهما يزور نهر الجنون .. يشرب منه الأديب جرعة كبيرة ثم يعود ، بينما المجنون يغرق فيه بلا رجعة ..

هى ما زالت قادرة على الرجوع ..

حتى هذه اللحظة على الأقل ..

لو لم يأتها المرشد فماذا يبقى منها ؟ وعيها تائه فى الفراغ ، بينما أمها وأخوها يرونها واقفة واللعاب يسيل من شدقيها .. عيناها فى أرض الأحلام .. تضحك .. تقطب .. تبكى .. تهرش رأسها .. ربما تضع كسرولة على رأسها وتخرج للحارة ، أو تبتاع سمنًا لتسكبه على رأسها كما كانت تفعل (أم رزة) ..

(عبير) يا صغيرتى .. لا يفصلك عن عالم الجنون سوى خيط واه جدًا..

خيط لا يراه سواك و(شريف) ..

أنت بحاجة إلى (شريف) ..

هو وحده القادر على أن يخبرك بحقيقة وضعك العقلى ..

* * *

ثم سمعت صوت خطوات فأجفلت ..

نظرت إلى الوراء فوجدت المرشد قادما وهو يعبث بالقلم الجاف الزنبركى كالعادة..

ـ « لم تتصلى به بعد ؟ » ..

ـ « لم أعد قط » ..

قال لها فى حيرة :

ـ « وهل تعرفين أين هو ؟ إن الأمر معقد .. أنت لا تعرفين عنوان بيته الجديد ولا رقم هاتفه »

ـ « هذا ما تعتقده أنت .. سوف أجده .. فى المرة القادمة ستعرف أنه هو من أعاد لى فانتازيا »

ـ « ومن أدراك أنه سيفعل ؟ »

ـ « إنه ليس طفلاً .. لا أعتقد أنه راغب فى المشاكسة .. مجرد خدمة يؤديها لى وينتهى الأمر » ..

فكر قليلاً .. ثم بحذر سألها :

ـ « هل ما زلت تحبينه ؟ »

قالت شاردة الذهن :

ـ « لا أدرى .. الحقيقة أننى لا أحمل نحوه عاطفة ما .. كان بوسعى أن أقول إننى لا أبالى وإننى أحتقره ، وإن من تخلى عنى لا يستحقنى .. كان بوسعى أن أقول هذا .. وكان بوسعى أن أقول إننى أموت شوقًا له وأضرب رأسى بالجدار عدة مرات طلبًا لسماع صوته .. أنت جزء من عقلى الباطن ولا يضيرنى أن تعرف الحقيقة .. لكنى لا هذا ولا ذاك .. متعادلة تمامًا كمحلول بلغ درجة التوازن .. فقط (شريف) يساوى فانتازيا .. إذن أنا لا أستطيع الحياة من دونه » ..

قال فى خبث :

ـ « يجب أن تحتفظى بهذا الإصرار الصحى .. إن مغامرة اليوم تتطلب هذا وأكثر » ..

ـ « وما هى ؟ هل سألعب دور (بنيلوبى) المخلصة ؟ هل سأكون (إيزيس) التى تفتش عن أشلاء جسدها فى كل أركان مصر .. دعنى أقل لك إننى أكره لصق الجثث الممزقة » ..

قال لها فى غموض :

ـ « فى القصة السابقة كان هناك خلل ما ، ولم يكن بوسعى معرفة اسم المغامرة على الإطلاق .. لم أكن أملك أى فكرة عن موضوعها .. اليوم هناك خلل آخر .. (شريف) موجود فى القصة لكنى لا أعرف أين هو » ..

ـ « (شريف) هنا ؟ ومنذ متى هو فى كل قصة ؟ »

ـ « أنت تحلمين بالعثور عليه فلا غرابة فى أن يعود للظهور .. الحلم ليس سوى ما رأيناه .. أو ما سمعناه .. أو ما خبرناه .. أو ما نتمنى أن نجربه .. أو ما نحن مرغمون على أن نجربه .. أو ما تخيلناه .. أو ما هو طبيعة فى جسمنا ..هذا ما يقوله أساتذة اليوجا »

ـ « وعلى أن أجده لأسأله ؟ »

ـ « نعم .. لكنى غير قادر على أن أساعدك »

كانت الآن ترى ميناء عملاقًا .. ترى مجموعة كبيرة من السفن .. ترى بحارة وتسمع الكثير من الصخب .. طائرات تعلو وتهبط بلا انقطاع ..

لكن هناك شيئًا ما غير معتاد ..

طراز الطائرات عتيق فعلاً .. الجو نفسه يذكرها بأفلام الأربعينات ..

قال لها وهو يمسك بورقة :

ـ « المعلومات التى لدى هى أنه فى مكان ما ، وسط بحارة أسطول يوشك على تلقى ضربة مروعة » ..

ـ « وهذا يعنى ؟ »

قال وهو يعيد الورقة إلى جيبه :

ـ « أسطول يتلقى ضربة مروعة .. فجأة .. نحن نتكلم عن هجوم اليابانيين على الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر إذن .. »

ثم أشار إلى الميناء وقال :

ـ « (شريف) فى مكان ما هنا .. عليك أن تجديه .. سوف تمنحك (فانتازيا) مساعدة صغيرة .. ثمة تلميح ما سوف يلفت نظرك .. وعندما تفعلين ذلك سيكون عليك إقناعه بأن يساعدك »

ثم لوح بإصبعه منذرًا :

ـ « لن يكون هذا سهلاً .. العثور على بحار وسط أسطول .. فى ألعن لحظة يمر بها هذا الأسطول .. من الأسهل أن تجدى سمكة بعينها وسط الفيضان .. دعك من أنه لن يكون هو ! لن تعرفيه من ملامحه ! سوف تتغير هذه بغرض خداعك »

قالت باسمة :

ـ « ليست (فانتازيا) فى غباء الواقع وبلادته .. فى عالم الواقع يمكن أن أعيش وأموت دون أن أجده .. هنا سوف يكون بالتأكيد بين من أتعامل معهم .. عندما يحقق المفتش مع رجلين فى القصة البوليسية ، فالقاتل واحد منهما حتمًا .. بينما فى عالم الواقع قد لا يكون القاتل واحدًا من العشرين المشتبه فيهم .. الخيال أكثر بلاغة واختصارًا ووصولاً للغرض .. إنه ثوب مهندم (مكسم) بعناية .. بينما الواقع مترهّل مفعم بتفاصيل لا جدوى منها »

نظر لها وبحث عن رد لاذع يخرسها تمامًا .. ثم قرر أن يترك للمغامرة أن تعلمها ..

* * *

2ـ مرفأ اللآلئ ..

العثور على بحار وسط أسطول .. فى ألعن لحظة يمر بها هذا الأسطول .. هذا ما قاله المرشد ، وكان دقيقًا على الأرجح ..

* * *

لا تعرف متى ولا كيف وجدت نفسها فى ذلك المقهى ..

الساقية الحسناء (جانيس) تمشى مشيتها الرشيقة بين المناضد .. تعلق فى خصرها المريولة ذات الجيوب التى تدس فيها مفكرة الطلبات .. على صدرها بطاقة تحمل اسمها ..

تنظر (عبير) لنفسها فى المرآة فترى صورة جديرة بأفلام (ريتا هيوارث) .. الشعر الأشقر المجعد .. الشفتان الحمراوان .. القامة الفارعة والصدر الذى لا يكف عن الوجيب .. كانت هذه مقاييس النجمة فى ذلك العصر ، ولهذا يجب ان تكون (جانيس) جديرة بأن يعجب بها الجميع ..

مثير فعلاً أن تجد لها شكلاً جديدًا فى كل قصة .. شكلاً جديدًا وشخصية جديدة ..

اليوم هو السادس من ديسمبر عام 1941 .. غدًا هو الأحد .. يوم الإجازة .. عرفت هذا من التقويم الذى رسمت عليه صورة كاريكاتورية لراقصة مرحة من أمريكا الجنوبية..

أطلت من النافذة فرأت أنها فى طابق أرضى ، وأنها ترى الميناء من هنا .. البوارج العملاقة التى تقف فى خمول لذيذ .. كلها تحمل علم الولايات المتحدة الأنيق.. مهرجان من اللون الأبيض الناصع مع البحر الأزرق والسماء الصافية ..

طائر نورس يهبط من السماء ليقف فوق عمود من الذى يربطون له حبال الهلب .. وهناك بحار يمسك بآلة (بانجو) صغيرة يعزف عليها لحنًا راقصًا ..

كل شىء مبهج جميل كما هو واضح ..

الساقية الأكبر سنًا (كلارا) تمر بها حيث وقفت تطل من النافذة فتقول لها بلهجة لائمة :

ـ « ليس هذا وقت الخواطر العاطفية .. إن (توم) لن يأتى اليوم .. هناك الكثير من البحارة اليوم .. يجب أن تهتمى بعملك » ..

إذن هناك (توم) وهو ليس هنا اليوم .. الأهم أنها تهيم به حبًا كما هو واضح ..

(شريف) طبعًا .. لم تحل لغزًا فى حياتها بهذه السرعة من قبل ..

على شفتيها ارتسمت ابتسامة خافتة وهى تعود إلى الكافتيريا لتمارس أول مرة تلعب فيها دور الساقية ..

كان البحارة يتبادلون المزاح .. العضلات القوية والشعور الحليقة فوق الفودين بطريقة Crew cut .. أكثرهم يضع قبعة البحارة على مقدمة جبينه على سبيل التظرف ، كما يفعلون بالطاقية فى ريفنا .. الوشم على السواعد القوية .. وبعضهم استبدت به الفتوة فراح يلعب لعبة (رادى فير) .. الكثير من أكواب الجعة ..

هنا أدركت أول مشكلة تواجهها المرأة التى تعمل ساقية .. بشكل ما يعاملها لجميع على أنها متاحة وأنها ضمن قائمة المشروبات .. يصعب على الرجل أن يصدق حقيقة أن ساقية الكافتيريا ليست رهن إشارته .. هذا يتكرر فى كل مكان وزمان ..

قال لها أحدهم فى مرح :

ـ « هل ترقصين معى يا (جانيس) ؟ »

نظرت له .. كان عتلاً صفيقًا أقرب إلى شاحنة آدمية .. ولو داس على قدمها فلن يختلف الأمر كثيرًا .

ابتسمت فى حرج بطريقة أمريكية جدًا وقالت :

ـ « شكرًا » ..

انفجر رفاقه يضحكون .. كانت هذه هى كلمة السر المطلوبة ..

هكذا نهض والشر فى عينيه .. الشر فى كشافات الشاحنة .. واتجه نحوها ليمسك بساعدها بقوة كادت تهشمه إلى نصفين وقال وهو يضغط على أسنانه فى حقد :

ـ « عندما يطلب (ديك) فتاة للرقص فهو لا يتوقع رفضًا .. عليها أن تكون سعيدة فخورًا » ..

قالت ما معناه : (إيه يا ختى ده ؟) وانتزعت ساعدها بعنف .. أسوأ إهانة توجه لامرأة هى أن تشعرها بأنها لا تملك حق الاختيار ..

لكن الأخ (ديك) كان ثملاً على الأرجح .. جرها بقوة إلى منتصف القاعة برغم احتجاجها وصاح بصوت جهير :

ـ « الموسيقا يا شباب .. أريد بعض الديكسى ! »

ومن صندوق موسيقا فى مكان ما انبعثت أنغام مرحة ..

كان يطوح بها فى اتجاه ثم يتلقفها قبل أن تسقط ليقذف بها فى اتجاه آخر .. وأدركت أن البحارة يلتفون حولهما فى دائرة وهم يصفقون .. (ديك) سعيد بقدرته على الإرغام ووساوس الجبروت ، وأصدقاؤه سعداء بأنهم تحت قيادة رجل قوى مثل هذا ..

كانت ترقص وهى موشكة على البكاء .. أنا أكره البحارة .. أكرههم من أعماق قلبى ..

تبًا لكم .. أتمنى أن أراكم تحترقون أحياء !

* * *

من الصعب أن تتحقق الأمنيات بهذه البساطة ، لكنها الحقيقة ..

فى هذه اللحظة يجرع الأدميرال (ياماماتو Yamamoto) بعض الساكى فى توتر على ظهر حاملة الطائرات اليابانية .. يملس على رأسه الأصلع ويختلس النظرات إلى (متسو فوشيدا) و(جيندا) و(ناجومو) مهندسى الهجوم القادم ..

فقط عندما ترى (جيندا Genda) قائد الطيران تشعر بأن النصر حليفنا غدًا ..

هذا الشاب المتحمس المتوثب هو العسكرية اليابانية تمشى على قدمين .. عيناه اللامعتان تقولان بوضوح : لن نفشل ..

لكن (ياماماتو) برغم أنه المسئول بالكامل عن الخطة يشعر بالتوتر .. أمريكا عملاق نائم غافل عن اليابان .. ومنذ عام 1812 لم يتلق أية هجمة على أرضه .. معنى هذا أن غضبته ستكون مخيفة ، ومن الصعب ان تتحمل اليابان دفع الفاتورة ..

لكن قل هذا من دون أن تبدو جبانًا أو خائنًا للطيارين اليابانيين المشتعلين حماسة ، والذين ربطوا رءوسهم علامة الكاميكازى .. قل هذا للميكانيكيين والبحارة .. قل هذا لـ (جيندا) و(متسو فوشيدا) .. قل هذا للإمبراطور العظيم ..

فيما بعد وبعد أن انتهت الحرب بدفع الثمن الباهظ الذى دفعته اليابان ، زار (ياماماتو) الولايات المتحدة فقال :

ـ « عندما رأيت حقول النفط فى تكساس والمصانع العملاقة فى (دترويت) .. أدركت أننا لم نحسن صنعًا ! »

هذا حق .. لقد استثار قارة كاملة ، وهكذا تحركت إمكانات قارة ضد اليابان .. وكانت النتيجة كارثية ..

كان (جيندا) هو الذى رسم خطة الهجوم على (بيرل هاربور) ـ مرفأ اللآلئ ـ منذ يناير عام 1941 .. هو الذى وضع كل التفاصيل الدقيقة .. المفاجأة ثم المفاجأة ..

لقد تجاوز الأمر مرحلة مناقشة التفاصيل .. لقد تم التدريب على الخطة منذ نوفمبر الماضى ، وأصغر بحار يعرف التفاصيل ..

فقط يجلس الرجال يحاولون تزجية لحظات القلق القادمة ..

كانت اليابان دولة تحاول التمدد منذ بدايات القرن العشرين .. الدولة (السوستة) كما يصفها السياسيون .. ومن هذه الدول المشاغبة التى تشتهى التمدد دومًا كانت ألمانيا وإيطاليا..

كانت اليابان قد تورطت فى الحرب مع الصين ومعارك فى (منشوريا) ، وظهرت أطماعها واضحة فى الهند الصينية ، ثم فى عام 1940 انضمت لقوات المحور .. ثلاث دول هى ألمانيا وإيطاليا واليابان اجتمعت لتحارب العالم ..

كانت الولايات المتحدة تتصدى لأطماع اليابان ، وحظرت تصدير النفط لها ..

معنى هذا أن أنامل الولايات المتحدة التفت حول عنق اليابان .. وصارت الفكرة المسيطرة على اليابانيين هى : سحق القوة الأمريكية فى المحيط الهادى .. لابد من ضربة تجهض القوة الأمريكية ..

برغم هذا ظلت الولايات المتحدة بعيدة عن أتون الحرب العالمية الثانية .. كانت تفضل أن تنأى بنفسها عن المشاكل ..

وفى كل ليلة كان (تشرشل) رئيس وزراء بريطانيا يصلى صلاة يدعو الله فيها أن يدخل الولايات المتحدة على الحرب ، لأن موارد إنجلترا انتهت ولم تعد قادرة على الصمود ..

الحقيقة أن الله استجاب لدعائه .. وكانت بوادر الاستجابة هى هذا الاجتماع المنعقد بين القادة اليابانيين الآن ..

قال (ياماماتو) وهو يصب لنفسه المزيد من الساكى :

ـ « أرجو أن تنجح خطتنا مع الطوربيد »

الحقيقة أن مياه بيرل هاربور ضحلة جدًا .. يحتاج الطوربيد المقذوف من الجو إلى مياه عميقة ليعمل .. هكذا عمل اليابانيون طيلة الصيف على اختراع طوربيد خاص يمكنه أن يعمل فى المياه الضحلة ..

ليست هذه هى المشكلة الوحيدة .. هناك مشكلة سمك ألواح الصلب التى تحمى المدمرات الأمريكية ، لذا طور اليابانيون قنابل خاصة خارقة للدروع ..

والآن تتقدم اليابان بأسطول مكون من حاملات الطائرات (أكاجى) و(هيريو) و(كاجا) و(شوكاكو) و(سوريو) و(زويكاكو) .. مع 9 مدمرات ومدرعات وغواصات .. هناك على حاملات الطائرات 423 طائرة معظمها من طراز (متسوبيشى) التى اشتهرت باسم (زيرو) .. تلك الطائرات المضحكة التى نراها اليوم فنشعر كأنها تطير بالزنبرك ..

أسطول هائل يتقدم .. لكنه لن يصمد لحظة أمام أسطول الولايات المتحدة لو أفاق ..

* * *

هنا هوت اللكمة على مؤخر عنق (ديك) ..

كانت الضربة قوية إلى حد أنه هوى على ركبتيه ، ومعه طن من الهيبة والغرور والكبرياء الزائدة .. رفع وجهه ليرى من هذا الذى سيبيت فى المقبرة فرأى ذلك البحار الوسيم قوى البنية ..

ـ « (توم) ؟ أنت تختصر ساعات حياتك أيها الطفل ! »

هذا هو (توم) إذن ؟

رفعت (عبير) عينيها لترمق وجهه فى فضول .. لا .. ليس هو (شريف) .. لا يمت بصلة له على الإطلاق .. لكن هذا لا يغير حقيقة أنه أنقذها ..

نهض (ديك) وهو ينفخ من منخريه كالثيران .. ثم قرر أنه سيوحى بالقوة أكثر لو رسم ابتسامة الأوغاد على شفتيه .. قال (توم) :

ـ « إذا كنت تحاول أن تلعب دور الرجل القوى ، فابحث عن رجل .. ليس هذه الفتاة الرقيقة »

ابتسم (ديك) وكور قبضتيه واتخذ وضع ملاكمة ممتازًا وقال :

ـ « هذا خبر طيب .. لقد وجدت الرجل ! »

كانت عضلاته مكورة الآن توشك على أن تمس خده .. وعضلات صدره مشدودة متوترة كأنها قدت من صلب ..

(توم) قوى البنية ، لكنها تلك القوة التى تسمح لـه بحمل حقيبة ثقيلة ، لكنها بالتأكيد لا تسمح بشىء مع ثور آدمى غاضب مثل هذا ..

الآن عادت الدائرة تلتحم .. لكنها لم تكن فى المركز هذه المرة .. كانت تقف فى محيطها تنظر فى رعب إلى المعركة القادمة .. الأغنية تصدح من جهاز الموسيقا تقول :

ـ « فلتنس كل شىء عن الأحزان هذه الليلة أيها الشىء الحلو .. أنا أريد أن أرقص معك حتى الصباح »

إن مرفأ اللآلئ ليس مرفأ الأحلام دائمًا كما يحلو للبعض أن يتخيل ..

* * *

3ـ صباح القلق ..

ضربة قوية هنا .. ضربة قوية هناك .. لكمة .. مراوغة ..

(ديك) قوى جدًا يا شباب .. لكن (توم) ليس سهلاً على الإطلاق .. (ديك) غاضب كالثور ، لكن (توم) متماسك هادئ الجنان .. لذا يكسب أرضًا باستمرار ..

لا ركلات .. نحن فى زمن (تسديد اللكمات القوية على الفك) .. يبدو أن فكاك الرجال كانت مربعة فى هذا الزمن من أجل هذا الغرض خصيصًا .. (توم) يراوغ لأنه لو تلقى لمسة لفكه من قبضة (ديك) الحديدية لاحتاج إلى فريق من جراحى العظام والأسنان البارعين ..

يراوغ .. يبحث عن ثغرة .. ثم يضرب .. وضربته ليست هينة ..

ـ « فلتنس كل شىء عن الأحزان هذه الليلة أيها الشىء الحلو .. أنا أريد أن أرقص معك حتى الصباح »

بدا أن المعركة سوف تستمر للأبد ، لولا أن دوى صوت آمر :

ـ « توقفا ! »

عرف الرجال القادم من دون أن ينظروا .. إنه من رجال الشرطة العسكرية ..

كان يقف هناك متصلبًا حازمًا كالمصيبة .. وهكذا تصلب معه كل من كانوا فى الكافتيريا ..

ـ « لا أريد تصرفات رعاع هنا .. أنتم تمثلون بحرية الولايات المتحدة الأمريكية »

هكذا تراجع المتقاتلان .. لكن (ديك) همس من بين أسنانه لخصمه :

ـ « أنت بطة ميتة ! »

اتجه (توم) منهكًا إلى منضدة .. فهرعت (عبير) إليه .. وجذبت مقعدًا وجلست .. كانت تشعر بهذا المزيج من الرعب والفخر الذى تشعر به الأنثى عندما ترى رجلها يقاتل من أجلها ، فلابد أن هذا يعود للعصور السحيقة عندما كان أقوى رجلين فى العشيرة يتصارعان حتى الموت من أجل أنثى ..

ـ « هل أصبت ؟ »

ـ « لا .. الخنزير قوى .. هذا كل شىء » ..

ـ « خذ الحذر .. إن ديك حقود ولا ينسى الإساءة » ..

كأنها تعرف أى شىء عن (ديك) هذا .. لكن هذا ما تمليه ضرورات الموقف ..

ـ « لا يهمنى إن كان (جوليات) نفسه .. المهم إننى رأيته يتحرش بك ، ولو كنت تتصورين أننى سأراك فى هذا الوضع ثم أصمت، فأنت تسيئين الظن بى كثيرًا »

ثم أخرج علبة التبغ ودس لفافة تبغ بين شفتيه ..

كانت تهيم به حبًا .. عرفت هذا عن نفسها بسهولة .. منذ توقفت سفن الأسطول الأمريكى فى ميناء (بيرل هاربور) فى (هاواى) منذ عـامين ، ووقعت عيناه عليها حتى عرف كلاهما مصيره ومستقبله ..

يقولون إن للبحار فتاة فى كل ميناء ، ولو كان هذا صحيحًا فإن (توم) يملك الكثير من الافتتان ليوزعه على كل هذه الموانئ .. لقد منحها من الاهتمام والحنان ما تجف معه ينابيع أى واحد آخر .. لو كان يملك المزيد من الحنان فهو شخص فريد من نوعه .. هناك طاقة قصوى للحب لا يمكن أن يتعداها المرء وإلا احترقت دوائره الداخلية .. و(توم) قد أعطاها هذا القدر فلا يمكن أن يكون عنده المزيد لفتاة أخرى ..

هنا سمعت من يقول :

- « أريد أن أتكلم معك على انفراد »

كان هذا هو (ديك) الذى وقف خلف (توم) وكان يتكلم بلهجة باردة لا غضب فيها ولا انكسار ولا حزن ولا أى شىء ..

نهض (توم) ومشى معه مبتعدين عنها ، ووقفا يتكلمان جوار صندوق الموسيقا ..

لا حاجة إلى استراق السمع .. كل شىء فى نظراتهما وتعبيرات وجهيهما يدل على أنهما فارسان من القرون الوسطى يرتبان

لمبارزة فى الغد .. الكاردينال (ريشيليو) يحرم المبارزة لذا سيكون علينا يا سيدى المهذب أن نتقابل بعيدًا عن عيون رجاله .. هذه هى الطريقة التى يمكن بها لسيدين شريفين من حرس الكاردينال أن يسويا خلافاتهما ..

راحت يدها تعبث فى علبة التبغ من طراز (كامل Camel) التى يضعها على المنضدة ..

لا تريد أن تفقد توم فى بداية المغامرة .. دعك من مهمتها العسيرة فى معرفة من هو (شريف) حقًا .. لا يمكن أن يكون واحدًا ممن رأتهم فى المقهى حتى اللحظة .. ليس واحدًا من اليابانيين طبعًا ..

ليس هو الـ ...

هنا شعرت بشىء فى علبة التبغ .. مدت يدها تعبث فيها .. هناك أوراق مقواة صغيرة جدًا موضوعة تحت بطانة العلبة .. لا شك فى هذا .. مدت يدها تتحسس .. أبرزت طرف واحدة من هذه الأوراق ..

حتى بثقافتها العسكرية المحدودة جدًا تدرك أن هذه صور فوتوغرافية صغيرة جدًا .. البطاقة الواحدة بطول علبة التبغ وعرضها ، لكنها تحوى نحو ست صور .. والصور تظهر ميناء .. (بيرل هاربور) على وجه اليقين ..

هناك حوالى ست بطاقات .. نحن نتكلم هنا عن 36 صورة دقيقة لميناء (بيرل هاربر) .. ومتى ؟ فى السادس من ديسمبر عام 1941 ..

هذه ليست علبة تبغ .. إنها كارثة مركزة مجمدة ..

* * *

إنه صباح الأحد .. السابع من ديسمبر ..

الهجمة الأولى كانت مقسمة على ستة تشكيلات يقودها جميعًا (متسو فوشيدا Fuchida) ..

أقلعت الطائرات من شمال (أواهو) وكانت تتكون من 49 قاذفة و51 قاذفة منقضة و40 قاذفة طوربيد و43 مقاتلة .. 183 طائرة تتقدم فى إصرار نحو الميناء الناعس .. عامة سوف تشمل الهجمة 353 طائرة يابانية ..

قاذفات الطوربيد هى التى بدأت الهجوم ..

كانت الساعة السابعة وثلاثًا وخمسين دقيقة .. إنه الفجر عند اليابانيين ..

الأمريكان فى (هاواى) يتناولون الإفطار ..

(عبير) تركض يمينًا ويسارًا حاملة أطباق البيض المقلى واللحم وتصب القهوة .. تشعر بأنها نحلة .. لكنها كذلك قلقة لأنها فى هذه المرة تعرف موعد الهجوم .. ليس الأمر خدعة قاسية كما حدث لها يوم ضرب (هيروشيما) ..

تنظر لساعتها .. معلوماتها أن الطائرات اليابانية لم تقصف أى هدف على البر .. لكن هذه هى فانتازيا حيث كل شىء ممكن ..

اصطدمت بالرئيسة (كلارا) .. نظرت لها وأشرق جمالها الذابل الذى ما زال يتألق تحت تجاعيدها ، وقالت :

ـ « لا تبدين على ما يرام اليوم » ..

قالت (عبير) وهى تنظر خارج النافذة ..

ـ « فقط أتساءل .. هل يمكن أن يقصف اليابانيون (بيرل هاربر) ؟ »

نظرت لها فى دهشة ثم تقلص وجهها وقالت :

ـ « لابد أنك فى حالة معنوية سيئة .. أرجو أن تهتمى بالعمل أكثر .. إن البحارة الجائعين خطرون »

طبعًا لم يكن البحارة جميعًا يفطرون عندها .. هناك الميس والكانتين .. لكن هناك حالة عامة من التسيب والاسترخاء .. دعك من أن هذا يوم إجازة .. أمريكا كلها تتمطع وتتثاءب فى تلذذ متسائلة عما يحمله لها اليوم الجديد ..

لم يكن اليوم الجديد يحمل إلا أسطولاً يابانيًا وطائرات (زيرو) انتحارية تتجه إلى هنا بالذات ..

على ظهر السفن الأمريكية كان البحارة يقفون لتحية العلم .. البعض كان نائمًا ..

كان قائد الفرقة الموسيقية يقود العزف عندما سمع هذه الطائرة المنخفضة عن يساره ..

قال لرجاله الواقفين أمامه يعزفون السلام الوطنى :

ـ « حاولوا معرفة رقم هذا الطيار الذى يحلق منخفضًا .. لابد من أن أشكوه » ..

لكن منظر الطائرة كان غريبًا .. ولم يصدق أحد أنها ليست أمريكية إلا عندما ألقت قنبلتها الأولى ..

هنا دوت الانفجارات .. وبدا أن أبواب الجحيم انفتحت على مرفأ اللآلئ ..

* * *

4ـ نمر .. نمر .. نمر !

عبر أجهزة اللاسلكى دوت الرسالة الشهيرة التى تسمعها فى كل فيلم أمريكى تقريبًا منذ ذلك الحين :

ـ « هذا ليس تدريبًا This is not a drill » ..

كل شىء ليس فى مكانه .. الطائرات على الأرض متلاصقة الأجنحة .. الذخيرة فى المخازن .. البحارة ليسوا على ظهور سفنهم .. شباك الغواصات التى تحرس الميناء غير منصوبة .. المخابرات لديها 14 رسالة مشفرة لم تحل ألغازها بعد ..

وعلى ظهر السفينة (وست فرجينيا) اندفع الطباخ الزنجى (دوريس ميلر) ليمسك بالمدفع المضاد للطائرات الذى لم يمسه قط من قبل ، وراح يطلق النار على الطائرات اليابانية حتى أسقط منها واحدة على الأقل .. هذا بينما سفينته تتلقى سبعة طوربيدات يابانية ..

الدخان يتصاعد لعنان السماء فلا ترى شيئًا .. لا أنت ولا الطائرات المهاجمة ..

حاولت المدمرة (نيفادا) الفرار لكن القادة خشوا أن تغرق فتسد الميناء .. هكذا تلقت عشرات الطلقات والطوربيدات ..

(أوكلاهوما) تلقت أربعة طوربيدات .. وتكفل الوقود المتحرك الذى غطى صفحة الماء بأن يحيل البحر إلى واحد من بحار (هيدز) .. كان الرجال يسقطون فى الوقود المشتعل صارخين .. غريب هو الموت الذى يجمع بين الحريق والغرق لكنه يحدث ..

فى هذا الوقت كانت هناك عملية هجوم منظمة على المطارات .. الطائرات الناعسة فى صباح الأحد فى شمس الشتاء .. الطائرات متلاصقة الأجنحة التى وضعت فى هذا التشكيل منعًا للتخريب ..

لقد تم تدمير الـ 188 طائرة التى تملكها أمريكا فى (بيرل هاربور) .. أغلبها دمر على الأرض أما التعساء الذين حلقوا فقد تكفلت بهم النيران الصديقة .. كانت هناك نيران صديقة فى هذا الزمن أيضًا ..

الطيار اليابانى الذى كان يفاجأ باحتراق طائرته ، كان يندفع بها نحو هدف أمريكى ..

استمرت الهجمة تسعين دقيقة ..

فقط لينقشع الدخان عن جثث 2400 جندى أمريكى وألف جريح وثمانية عشرة سفينة أمريكية غارقة .. أكثر من ماتوا من أمريكيين لقوا حتفهم فوق ظهر المدمرة (أريزونا) .. لكن الغرق النهائى لها كان بقنبلة ألقاها طيار يدعى (كوزومى) ..

اليابانيون أيضًا خسروا .. لقد هلك 55 طيارًا .. وغرقت تسع من غواصاتهم ..

أين حاملات الطائرات الأمريكية ؟

يبحث عنها اليابانيون فى لهفة .. تحلق طائراتهم هنا وهناك وهى تئز كالبعوض ..

كانت (إنتربرايز) عائدة من مهمة فى المحيط الهادى .. و(لكسنجتون) كانت قرب جزيرة (ميدواى) .. و(ساراتوجا) كانت تجرى إصلاحات فى (سان دييجو) ..

هذا هو دور الحظ فى اللعبة .. لو غرقت هذه الحاملات الثلاث لكانت الضربة قاصمة للولايات المتحدة فعلاً ..

وعبر اللاسلكى دوت إشارة الشفرة اليابانية التى تؤكد أن المفاجأة كانت كاملة :

- « تورا تورا تورا ! »

ومعناها « نمر .. نمر .. نمر ! »

* * *

فى الكافتيريا بلغت الفوضى ذروتها ..

موجات الانفجار القادمة من الخارج قلبت الموائد وأطارت الأطباق ، حتى ليحسب من هو غير ذى خبرة عسكرية أنها تقصف .. البحارة يركضون إلى سفنهم .. وصفارات الإنذار تدوى ..

كل شيء يهتز والغبار يتساقط من السقف ..

و(عبير) و(كلارا) انزلقتا تحت منضدة من مناضد الطعام وغطت كل واحدة رأسها على طريقة النعام .. كأن المرء لا يموت إلا إذا جرح رأسه ..

قالت (كلارا) وهى ترتجف :

ـ « أنت تملكين حاسة سادسة فعلاً .. ما الذى جعلك تتوقعين هذا ؟ »

تمنت (عبير) أن تشرح لها أنها رأت فيلم (تورا تورا تورا) الشهير ، وبعده رأت (بيرل هاربور) ، لكنها لا تستطيع .. لذا قالت :

ـ « إنه مجرد إحـ » ...

* بوم !

دوى الانفجار فأضاع التفسير .. وخرجت من مكانها إلى النافذة لترى الجحيم ذاته .. الميناء الجميل تحول إلى شعلة نيران بينما تتصاعد سحابة سوداء كثيفة إلى عنان السماء ، وطائرات (زيرو) تئز كالبعوض مصاص الدماء باحثة عن شخص تلدغه .. الرصاص (الفيكرز) يتطاير حتى أن بعضه تناثر داخل الكافتيريا ..

سيارات إسعاف .. السفن تطلق سرينتها الغريبة المولولة ..

إنه الجحيم .. فى مكان ما منه يوجد (توم) ومعه سر لابد من أن يجيب عنه ..

* * *

طالب بعض الضباط (ناجومو) بأن يهجم بموجة ثالثة لتدمير مخازن الوقود ، والحقيقة أن هذه الضربة الثالثة كانت ستحقق الكثير لكن ناجومو فضل الانسحاب فورًا .. لقد لاحظ أن الدفاع الجوى الأمريكى يزداد قوة .. معظم خسائر الطيران اليابانى حدثت فى الموجة الثانية .. لقد تنبه الأمريكان ومعنى هذا أن الأمر يزداد خطورة ..

دعك من أنهم سيجدون مصدر الهجوم عاجلاً أم آجلاً و(ناجومو) تنتظره معارك طويلة فليس بوسعه أن يجازف بحاملات طائراته من أجل هدف تم تحقيقه فعلاً .. السبب الأهم هو أن الموجة الثالثة تعنى عودة الطائرات لحاملاتها ليلاً .. ولم تكن هناك فى عام 1941 أية تقنية مضمونة للرؤية الليلية أو لتسهيل هبوط الطائرات فى الظلام ..

حاملات الطائرات كانت على بعد مائتى ميل شمالى (هاواى) وقد فشل الأمريكان فعلاً فى تحديد المصدر الذى جاءوا منه ..

والحقيقة أن حرب المحيط الهادئ بدأت بما يفوق هذا المشهد الشنيع ذاته .. قبل الهجوم بتسعين دقيقة كانت اليابان قد بدأت غزو الملايو وهاجمت (هونج كونج) .. وتلا (بيرل هاربر) الهجوم على الفلبين وتايلاند ..

وعلى المستوى الدبلوماسى مارست اليابان سياسة (الاستعباط) الكاملة – وأعتذر عن اللفظة لكنها معبرة جدًا – بأن أرسلت إعلانها الحرب على أمريكا بعد الهجوم بأربع وعشرين ساعة .. وقد نقل الرسالة موظف بائس على دراجة هوائية استغرق عدة قرون حتى يوصل رسالته ..

كان فشل الاستخبارات كاملاً برغم أنها استطاعت فك الشفرة القرمزية اليابانية وتوقعت عملاً معاديًا ضد (بيرل هاربر) .. لكن الاستجابة كانت بطيئة جدًا ، تذكرنا بإشارة (عنب عنب عنب) الشهيرة عندنا التى أرسلها الشهيد (عبد المنعم رياض) من (عجلون) فى ساعة مبكرة من صباح 5 يونيو عام 1967 ، ولم يهتم بها أحد ..

* * *

5- شكوك ..

يرشف (توم) القهوة فى صمت .. ويمسح جبينه ..

كانت الضمادات تملأ جبهته .. يبدو أن تلك النافذة تطايرت فى وجهه من جراء موجة انفجار ، لكنه فيما عدا ذلك سليم تمامًا ..

جلست أمامه على المنضدة وسط قطع الخشب وشظايا الزجاج الموجودة فى كل مكان تقريبًا ..

لم يتسع الوقت لتنظيف شىء ، لكن الكافتيريا كانت تلخص حال أمريكا الغاضبة الجريحة .. على الجدار تمزق ملصق (العم سام) وهو يشير لنا قائلاً : « أنا أريدك » ، لكن هناك ملصقًا جديدًا يظهر العم (سام) مشمرًا عن ساعديه ويلوح مهددًا : « انتقموا لبيرل هابور » .. متى استطاعوا رسم وطبع هذا الملصق ؟ اللّه وحده يعلم ..

قالت لـ (توم) وهى تمسد على شعره الأشقر المتهدل فوق الضمادات :

– « كان هذا عسيرًا ؟ »

نظر لها فى حيرة ثم أشعل لفافة تبغ .. ثم قال وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان :

– « الرئيس (إيزنهاور) أعلن الحرب على اليابان .. هل سمعت الخبر ؟ »

هزت رأسها أن نعم .. لم يلحظ اختفاء علبة تبغه السابقة كما هو واضح .. الحمد لله ! عادت تسأله :

ـ « ماذا عن (ديك) ؟ »

ابتسم فى حزن وغمغم :

ـ « لن أواجهه أبدًا لسبب بسيط .. إنه الآن فى أعماق المحيط » ..

ـ « أوه ! »

وشعرت بالذنب .. مهما كرهنا خصومنا فنحن بحاجة لدرجة عبقرية من المقت كى نتمنى أن نراهم جثثًا تلتهمها أسماك القرش ..

لقد اختفت وجوه كثيرة .. سوف يستغرق الأمر دهرًا حتى تعرف من مات ومن فقد ، ومن هو ببساطة يمارس عمله على ظهر إحدى القطع البحرية الناجية ..

قال لها وهو يضغط بأسنانه على لفافة التبغ كعادة الرجال فى ذلك الوقت :

ـ « كان هذا كابوسًا .. أتمنى لو وجدت جهازًا يمنحنى القدرة على النوم بلا كوابيس .. ربما أريد جهازًا يمنحنى أحلامًا جميلة » ..

نظرت له للحظة .. هل هذه هى العلامة ؟ لا تعرف ولا تجرؤ على أن تسأله ببساطة : هل أنت (شريف) ؟ شىء فى أعماقها يقول لها إنه ليس هو .. لكن ماذا لو كانت مخطئة ؟

فى هذه اللحظة رأتهم ..

خمسة من رجال الشرطة العسكرية يدخلون الكافتيريا .. يقفون وراء (توم) .. يتقدم أحدهم وهو رجل قوى البنيان له ملامح صارمة ، فيقول له :

ـ « المجند (توماس واينبرجر) ؟ »

نهض (توم) مذعورًا ونظر إلى القادمين ، فقال الرجل :

ـ « لدينا أوامر باعتقالك .. أرجو أن ترحل معنا بهدوء » ..

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

تبادل الرجال النظرات ، ثم قال الرجل الذى يبدو أنه رئيس هذه المجموعة :

ـ « لا يمكن شرح التفاصيل هنا .. فقط أقول لك إنك متهم بخيانة الولايات المتحدة الأمريكية »

شحب وجه (توم) .. بالله عليك يجب أن تصاب بهستيريا وتنهار .. اصرخ واشتمهم ! لا داعى لهذا الصمت .. لا داعى لهذا الاستسلام كفأر وقع فى المصيدة ..

الآن فقط أعرف أنك مذنب وأننى محقة فى شكوكى .. لا يهمنى مجرى التحقيقات ، فقد أجريت تحقيقاتى الخاصة وعرفت الجواب ..

أنت مذنب ..

* * *

لم تنس كيف اتجهت فى مساء الاثنين إلى المخابرات العسكرية .. كان الصخب هناك شديدًا والفوضى ضاربة أطنابها .. الكثير من الرءوس سوف تطير إثر التحقيقات لمعرفة من المهمل ومن المتسيب ومن المتسبب فى هذه الكارثة ..

لهذا أصيبت المخابرات بالهستيريا .. راحت تعتقل بالجملة ، وبالطبع كان حظ اليابانيين المقيمين فى الولايات المتحدة هو الأكثر فسادًا .. لقد عوملوا كأعداء متربصين بالأمة ، واعتدوا عليهم علنًا .. كما وضعوا جميعًا تحت المراقبة .. وانتشرت الإشاعات .. ذات المناخ الهستيرى الذى ساد بعد الحادى عشر من سبتمبر بعد ستين عامًا ، مع استبدال المسلمين باليابانيين هذه المرة ..

هناك جلست .. ولم يكن هناك الكثير لتقوله ..

فقط أخرجت علبة التبغ بما فيها من صور .. اتسعت عينا الضابط الذى يسمع لها وتفحص الصور ، ثم دق جرسًا يطلب اثنين من معاونيه .. والتف الجميع حول هذه الكارثة ..

قالت لهم إن (توماس واينبرجر) هو صاحب علبة التبغ .. (توماس) هو من اختفى وقت الهجوم ، واتضح انه متوار فى حانة بعيدة عن الميناء فلم يلحق بسفينته (وست فرجينيا) .. كأنه كان يعرف موعد الهجوم بالضبط ..

هنا مال عليها الضابط وسألها فى حذر :

ـ « وهو حبيبك .. أليس كذلك ؟ »

نظرت له فى حيرة ، ثم قالت :

ـ « بلى .. لكن هذا لا يجعل كلامى غير ذى قيمة .. ربما أحببته لكنى أحببت وطنى أكثر .. ربما أكره أن أخونه لكنى أكره خيانته للوطن أكثر » ..

قال لها :

ـ « إن الأمر خطير .. هناك عدة جواسيس لليابانيين فى هذا المرفأ .. حبيبك سوف يحاكم أمام المحاكم العسكرية ، ولو أدين فلسوف يعدم رميًا بالرصاص .. ثمن الخيانة فى وقت الحرب باهظ جدًا »

ـ « أعرف هذا » ..

قالتها وابتلعت ريقها .. وفجأة انهار حاجز التماسك وراحت يدها ترتجف بلا انقطاع .. ثم أجهشت بالبكاء .. لم يتحرك الضابط بل ظل يرمقها ثابتًا بلا كلمة .. لم يعد هناك وقت للحنان ولا الاهتمام بالفتيات الباكيات .. لقد انفتحت أبواب الجحيم ولن تُغلق ..

* * *

غريب هذا الشعور ! الخليط من شعورك بأنك بطل قومى ، وأنك خائن مثل (يهوذا) ..

بالنسبة للولايات المتحدة أنت بطلة .. بالنسبة لحبيبك أنت خائنة قاسية تلاعبت به .. كيف وجدت الأعصاب لتجلسى معه وتسأليه عن حاله بينما أنت تعرفين أن رجال الشرطة العسكرية يحاصرون الكافتيريا ؟

لقد أسلمته لهم .. أسلمته لجلاديه .. وأنت تعرفين أنه لن ينجو ..

لكن .. فكرى فى كل الجثث الأمريكية التى التهمتها أسماك القرش .. الموت هو الموت حتى لو كنت فى عالم الواقع لا تحملين استلطافًا كبيرًا للولايات المتحدة .. الخيانة هى الخيانة .. و(توم) كان أمريكيًا .. لو كان يابانيًا لحملت له الكثير من الاحترام ..

ستكون كارثة حقيقية لو اتضح كذلك أن هذا البائس هو (شريف) .. لا توجد طريقة لإطلاق سراحه الآن ..

كانت تفكر فى هذا كله وهى تفتح باب شقتها ..

شقة ضيقة جدًا .. نظيفة .. تعيش فيها وحدها لأنها لا تطيق فكرة فتاة تشاركها كل شىء ..

النافذة مفتوحة تهب منها رائحة البحر .. تقف فى النافذة وسط الستائر المتطايرة تنظر إلى الشارع ، الذى يمشى فيه بحارة أمريكيون ومواطنون من (هاواى) ..

لن تتمكن من النوم .. سوف تبتلع قرصًا من (الفاليوم) وتحاول .. قرصين .. ربما أكثر ..

عشاء ؟ لا .. لا تطيق فكرة أن يمس الطعام معدتها ..

دعت اللـه ألا تستدعى ضرورات التحقيق أن تواجه (توم) ثانية .. أن يجلسوها أمامه لتقول ما تعرفه .. أن تنظر فى عينيه ..

لقد قاتل فى الكافتيريا من أجلها .. قاتل ببسالة ..

دعت اللّه كذلك أن يصدقوا وعدهم وألا ترد سيرتها فى التحقيق .. كيف عرفتم هذا كله ؟ إن لنا مصادرنا أيها البحار (واينبرجر) .. لدينا مصادرنا ..

كان هناك صوت خدوش ..

من أين تأتى ؟

بحثت حولها وهى تستبعد ان تكون الشقة مسكونة .. من الصعب أن يجتمع بيرل هاربر والأشباح فى قصة واحدة ..

ثم سمعت المواء ..

إنه القط .. قطها الرومى الصغير الذى رأته مرتين منذ بدأت هذه القصة .. إنه هنا .. لكن أين ؟

راحت تقتفى أثر الخدوش .. نعم .. هنا .. إنه آت من خلف هذا الجدار الخشبى .. لكن كيف ؟ هذا مجرد جدار ..

إنه حبيس .. هذا مؤكد ..

راحت تفتش بعناية فى الجدار فوجدت مقبضًا مخفيًا .. ضغطت عليه وهنا حدثت المعجزة ..

وثب القط من الداخل ليمسح جسده الناعم المخملى فى ساقها فشعرت برجفة .. أما ما رأته بالداخل فكان عجبًا .. غرفة كاملة كانت متوارية .. يبدو أن صاحب الشقة أضاف هذا الجدار الخشبى ليصنع غرفة صغيرة خفية ، وقد أدى هذا لانكماش بسيط فى طول الغرفة الأصلية ..

هناك منضدة .. هناك جهاز لاسلكى عملاق عتيق الطراز .. ذلك الزمن الذى كانت كل الأجهزة الإلكترونية تعمل فيه بصمامات .. هناك أوراق .. هناك كاميرا صغيرة .. هناك مظاريف تحمل عنوانًا فى بلجيكا ..

ما معنى هذا ؟ هل (توم) كان يأتى هنا ؟

دنت من الأوراق وتفحصتها .. كانت هناك رسائل بالشفرة .. لكنها رأت كتاب الترجمة الذى يحوى المفتاح ورأت عبارات بالقلم الرصاص بخطها على ورقة صغيرة :

ـ « مينرفا .. تحددت الساعة (0) لتكون صباح الأحد السابع من ديسمبر .. نريد صورًا حديثة للميناء قبل وبعد الهجمات .. يتم إبلاغ (أرجوس) »

هناك علب تبغ فارغة .. علب من الطراز الذى يستعمله (توم) .. سقطت على ركبتيها غير مصدقة ..

إذن هى (منيرفا) .. رئيس هذه الشبكة ! و(توم) ليس إلا العميل (أرجوس) .. لقد ترك علبة تبغه معها عمدًا لأنها كانت تحوى صور الميناء !

من هذه الغرفة كانت رسائل شفرية ترسل إلى اليابانيين ، وهنا كان يتم تصوير ما يلتقطه (توم) على شكل (ميكروفيلم) يرسل فى خطابات إلى عنوان ما فى (بلجيكا) ..

لا تعرف حجم الاستخبارات اليابانية فى الميناء ، لكن من الواضح أن هذه الغرفة كانت مصدرًا مهمًا للمذبحة التى حدثت يوم الأحد ..

وهى أبلغت عن عميلها ! أبلغت عن (توم) ويعلم اللّه وحده متى يتكلم ..

سوف يرغمونه على الكلام .. لا مفر من هذا ..

عندها سيتذكرون أشياء تتعلق بها .. ستقول (كـلارا) إن (جانيس) تنبأت بالهجوم قبل حدوثه بدقائق .. ستقول إن (جـانيس) كانت قلقة لا تكف عن النظر إلى ساعتها ..

هذا هو المقلب الذى أعدته لها (فانتازيا) ..

فجأة هى رئيس شبكة الجاسوسية الذى لا يعرف عن الجاسوسية حرفًا ..

إنها ...

وهنا دوت الضربات العنيفة على الباب فأفلت قلبها ضربتين ..

ومن الخارج سمعت صوتًا آمرًا يقول :

ـ « مخابرات عسكرية ! افتحى باسم جيش الولايات المتحدة ! »

* * *

6ـ معركة أخرى ..

كانت متجهة إلى الباب لتفتحه ..

هنا شعرت بمن يجذبها مـن كمها .. هل (تـوم) هنـا ؟ أم أن رجال المخابرات قد دخلوا ؟ أم ..

لكنها كانت تعرف هذه اللمسة .. لمسـة المرشد .. لذا التفتت له صارخة :

ـ « أنت أيها المخبـول ! هل تتصور أن أكون جاسوسـة وأن تكون وسائل الاتصـ ... »

قال فى هدوئه الأسطورى المعتاد :

ـ « خطأ تعتذر عنه إدارة فانتازيا .. كـان المقصود أن تكون قصة اليوم كلها فى (بيرل هاربر) ، لكن يبدو لى أنك لم توفقى لمعرفة (شريف) لذا سأختصر الأحداث .. أعتقد أن بيرل هاربر ليست هى المعركة المقصودة » ..

قالت فى عدم فهم بينما القرعات توشك على انتزاع الباب :

ـ « لا أفهم » ..

ـ « (شريف) وسط بحارة أسطول يوشك على تلقى ضربة مروعة .. هذا ما عرفته .. هكذا افترضت أنها (بيرل هاربر) .. يبدو أننا نتكلم عن أسطول آخر » ..

ـ « وهذه المغامرة ؟ »

نظر للباب الذى بدأ يتداعى بوقع الضربات وقال :

ـ « لا شىء .. تحقيقات .. ضغط نفسى عليك ثم الإعدام باعتبارك رئيس الشبكة التى سربت لليابانيين كل شىء عن الميناء .. لا يبدو لى هذا السيناريو شائقًا جدًّا .. فلنجرب شيئًا آخر »

وأمسك بيدها .. وفى اللحظة التالية لم تعد موجودة ..

* * *

يومنا فى إكتيوما .. ذكره فى الأرض سار

اسألوا أسطول روما .. هل أذقناه الدمار ؟

أحرز الأسطول نصرًا .. هز أعطاف الديار

شرفًا أسطول مصرا .. حزت غايات الفخار

صارت الإسكندرية .. هى فى البحر المنار

ولها تاج البرية .. ولها عرش البحار

(أحمد شوقى بك)

* * *

هى الآن تقف على ظهر سفينة عملاقة أقرب إلى بارجة ..

للمرة الأولى فى قصة تدور فى الأسطول تجد (عبير) نفسها على ظهر سفينة !

لكنها ليست سفينة معاصرة .. إنها سفينة عتيقة .. أكثر قدمًا من سفن الأرمادا الأسبانية وسفن كولومبوس .. أقدم من هذا بكثير ، لكنها برغم هذا أجمل بكثير .. تحفة فنية تصارع الأمواج فتعلو مقدمتها ثم تهبط ..

تنظر (عبير) لقدميها فتدرك أنها تلبس ثيابًا هفهافة وصندلاً عليه زهرة اللوتس .. ما معنى هذا ؟ ثيابها أقرب لثياب العازفات الفرعونيات الثلاث فى اللوحة الجنائزية الشهيرة .. بعبارة أخرى لم تكن ترتدى شيئًا تقريبًا ..

ثمة شىء فى هذا الجو يذكرها بمغامرة سابقة .. نعم .. قصتها مع (رمسيس الثانى) .. أشك فى أن هذا هو عالم مصر القديمة ..

غريب جدًّا هذا العالم .. كل شىء متناسق مع الآخر كأنهم جميعًا يعملون لغرض واحد ، هو أن يكون كل شىء ذا طابع فرعونى .. المجاديف التى تخرج من جانبى السفينة .. شكل الخشب .. شكل الشراع .. ثياب البحارة .. حتى الطيور التى فى الجو ذات طابع فرعونى .. لولا ما فى ذلك من مبالغة لحرص كل واحد على ألا يراه الآخرون إلا من منظور (البروفيل) ..

لكن البحر نفسه لا يمت للفراعنة بصلة .. إنه بحر ذو طابع روماني أو يوناني لا شك في هذا ..

لا تعرف ما هو الطابع الروماني، لكنها واجهت الرومان كثيرًا جدًا حتى صارت تشمهم من بعيد .. هذه العملاقة في الأفق سفن رومانية بلا أدنى شك .. وهي لا تصطف في المواجهة بل هي تتحرك مع سفينتها كأنهم حلفاء ..

سفينة مصرية وسفن رومانية تتجه لنفس الغرض .. ما معنى هذا ؟ هل حدث تحالف تاريخي بهذا المعنى من قبل ؟

المهم أن معدتها مقلوبة تمامًا وأنها توشك على إفراغها .. هذا الموج .. هذا الموج اللعين يوشك على أن .... منذ متى كان لون العالم أخضر ؟

دنت منها فتاة من العازفات الثلاث لتقول لها :

ـ « (شرميون) .. الملكة تريدك ! »

ملكة ؟ (شرميون) ؟ من هي ؟ وجف قلبها لدى سماع لفظة ملكة، ثم نظرت إلى الفتاة السوداء وبرغم هذا بارعة الحسن .. معنى هذا أنهما وصيفتان أو جاريتان لدى ملكة ..

مدت الفتاة يدها الدقيقة فمشت معها متجهتين لقاع السفينة ..

في هذه اللحظة برز لها فتى أسمر من طراز (العشاق) الذين تراهم في القصص .. أسمر دقيق الملامح حزين يبدو عليه التصميم والصدق .. إنهم ينتجونهم بالجملة في هذه القصص بينما لا تقابل الفتاة واحدًا في عالم الواقع وحتى تموت ..

قال لها الفتى في لهفة :

ـ « (شرميون) .. لا تخرجي لظهر السفينة أبدًا إذا تم الالتحام » ..

وراح صدره يعلو ويهبط متوقعًا أن تقول تعليقًا أو ترتمي في أحضانه، لكنها قالت له آخر شيء يمكن أن يخطر بخياله :

ـ « هل أنت (شريف) ؟ »

بدا عليه الذهول وارتجت الكلمات في حلقه، لكن الفتاة الرقيقة جرتها من يدها إلى قاع السفينة قبل أن يجد إجابة .. بالتأكيد لم يكن ليجيب بـ (نعم) ..

ما إن هبطت بضع درجات حتى احتبس الكلام في حلقها .. لم يكن هذا قاع سفينة مما نراه في الأفلام يعج بالفئران وبراميل الماء والأطعمة .. لا .. هذا مخدع كامل لملكة .. طاووس .. أكثر من واحد .. جوار يحملن مراوح .. عبيد سود عمالقة لا يفعلون شيئًا إلا أن يبدوا مرعبين .. طنافس .. أطباق فاكهة .. أطباق طعام .. دوارق شراب .. فتاة تضرب على أوتار الهارب .. كل هذا في جو فرعوني ساحر شبه مخدر ..

وسط هذا كله كانت الملكة ترقد على حشية لا تبدو مريحة جدًا .. كل هاته الملكات يعشن حياتهن متكئات على ساعدهن الأيسر وفى وضع أفقى .. لابد أنهن كن يعانين تنميلاً مروعًا فى تلك السواعد .. جوارها سلة مليئة بالتين تغطيها بقطعة قماش صغيرة ..

الملكة امرأة .. هذا واضح طبعًا .. فى منتصف العمر تضع طنًا من الأصباغ ، مع زينة ملكات فرعونية كاملة .. لكنك ترى وسط هذا كله بقايا من جمال لم يذبل بعد .. ربما بعد حين ..

لها أنف طويل جميل .. ثمة أنوف لا تنتمى لعالم الدقة لكنها تعطى الوجه فتنة لا شك فيها ..

أنف ؟ ملكة فرعونية ؟ .. (شرميون) ؟

لقد اتضح كل شىء ..

إنها تقف الآن أمام (كليوباترا) ..

* * *

7ـ الالتحام ..

تساءلت (كليوباترا) بصوت رقيق وبلكنة شبه أجنبية :

ـ « (شرميون) يا حبيبتى .. تعالى وأخبرينى ما رأيت على ظهر المركب .. هل ظهر (أوكتافيوس) ؟ »

نظرت (عبير) إلى السلة فى رعب .. كل واحد على ظهر الأرض يعرف اليوم أن ثعبان الكوبرا الذى انتحرت به كليوباترا موجود هنا وسط التين .. كانت تحمل معها طريقة انتحارها كمخرج سرى أخير للفرار فى حالة إذا ما ساءت الأمور ..

لم تكن (عبير) تملك أية خبرة عسكرية ولا علم لها بالقصة ، لكنها قالت :

ـ « لم يظهر (أوكتافيوس) بعد يا مولاتى »

وانحنت انحناءة عظيمة جدًا .. لكنها قدرت أن جو المخدع حميم جدًا .. جو صديقات يتسامرن وليس جو ملكة وجواريها ..

قالت (كليوباترا) فى قلق :

ـ « إن الوقت يمر .. عسى ألا يكون هذا كمينًا .. أرجو أن يأخذ اللورد (أنطونيو) حذره »

ثم أشارت لها برأسها إشارة أنيقة بمعنى أن بوسعها أن تنصرف ..

لم يفتها فى طريقها للخارج أن ترى تقويمًا معلقًا على الجدار كتب عليه (2 سبتمبر عام 31 قبل الميلاد) .. هذه من لمسات فانتازيا المعتادة .. كيف عرف من عاشوا قبل الميلاد أنهم كذلك ؟ لو نزعت الورقة لوجدت أن تاريخ الغد هو 1 سبتمبر .. نحن نتحرك بالمقلوب كما تعلم ..

على سطح السفينة بينما الموج يقذف السفينة إلى عنان السماء ثم يهوى بها فى حفرة بلا قرار .. مرة فمرة فمرة .. هو ذا دوار البحر يعود من جديد .. سوف تفرغ معدتها بلا هوادة ..

دنت منها جارية أخرى لها ملامح أوروبية لا تخطئها العين .. ووقفت جوارها متمسكتين بحاجز السفينة .. تنظران من أعلى إلى المجاديف .. عشرات منها على الجانبين يحركها آلاف العبيد الجالسين فى القاع ..

قالت الجارية :

ـ « لن تغرب شمس هذا اليوم من دون الالتحام .. »

ـ « هذا صحيح .. »

ليتها تفهم شيئًا .. كل هذا ليس عادلاً .. لذا قررت أن طريقة تتبع أطراف الأخبار لن تجدى هنا .. لابد من السؤال المباشر ..

ـ « لماذا يريد (أوكتافيوس) محاربة كليوباترا ؟ »

نظرت لها الجارية فى دهشة لبعض الوقت .. هذه أشياء انتهى زمن مناقشتها فلماذا نعاود شرحها من جديد ؟ قالت فى صبر :

ـ « الموضوع ببساطة هو ثأر شخصى .. إن زوجة (أنطونيو) Antony هى أخت (أوكتافيوس) Octavian ربيب (يوليوس قيصر) .. هناك إهانة لا بأس بها فى الموضوع أن يتخلى (أنطونيو) عن زوجته من أجل ملكة مصر .. أنت تعرفين أن (أنطونيو) وقع فى حبائلها .. لم يستطع أن يقاوم سحرها عندما جاءته فى (سوريا) .. كان يعتقد أنه أقوى من ذلك ، وأنه لن يقع فى الشرك الذى وقع فيه (يوليوس قيصر) .. »

ـ « وهل خرج (أوكتافيوس) للحرب من أجل شرف أخته ؟ »

ـ « طبعًا لا .. لقد أشعل روما حماسة ضد (أنطونيو) .. قال إن (أنطونيو) العظيم قد أهدر كرامة روما من أجل غانية مصرية .. والأسوأ أن (أنطونيو) راح ينادى بأن (قيصرون) ابن (كليوباترا) هو الوريث الشرعى ليوليوس قيصر .. معنى هذا أن يحكم روما رجل نصفه مصرى .. هذا كان كافيًا كى يجرد مجلس الشيوخ أسطول الجمهورية .. والهدف القضاء على أنطونيو واحتلال مصر »

قالت (عبير) فى حيرة :

ـ « وهل يملك (أنطونيو) خبرة بالمعارك البحرية ؟ »

ـ « ولا (أوكتافيوس) وحياتك .. لكن هذا الأخير يستعين بقائد بارع فى المعارك البحرية هو (أجريبا) Agrippa بينما يعتمد (أنطونيو) على الجهود الذاتية » ..

ـ « وماذا عن سفينة كليوباترا ؟ »

ـ « ليست سفينة بل هى أسطول مصرى كامل جاء لمعاونة (أنطونيو) فى حربه على بلاده .. لكن الملكة تفضل أن تبقى على مسافة معينة وتراقب مجريات الأمور »

هذا وضع (عبير) فى الصورة مؤقتًا .. وقررت أن تراقب بدورها ..

إن هذه الحرب لا تعنيها فى شىء .. لكنها مهتمة بأن تجد (شريف) ..

لكن هل هى مهمة سهلة ؟

* * *

تم اللقاء بين الأسطولين عند مستعمرة (أكتيوما) Actium الرومانية على سواحل اليونان ولذا اتخذت نفس الاسم .. لماذا يسمونها (اكتيوما) وليس (اكتيوم) ؟ هذا مزاج المترجمين العرب الذين أصروا على أن تكون (بريتين) (بريطانيا) وأن تصير (نيوزيلاند) (نيوزيلاندا) .. نفس الأسباب التى تجعل الغربيين يستعملون لفظة Egypt ولا يستعملون (مصر) .. لماذا يحولون (هلفتيا) إلى (سويسرا) و(سوومى) إلى (فنلندا) ؟

على كل حال سأخرس قليلاً حتى أتيح لك متابعة أحداث المعركة ..

تذكر أن هذه الحرب وقعت قبل ألفى عام .. لا مدفعية ولا طوربيدات .. فقط السهام المشتعلة والتقنية المتطورة : أن تقتحم سفينة خصمك لتقلبها .. ثم الالتحام والقتال بالسيوف والرماح ..

أسطول أنطونيو يتكون من 220 سفينة .. ومعظم سفنه ثقيلة ضخمة مدرعة بصفائح البرونز لجعل اقتحامها صعبًا .. لكن هذا فى الوقت ذاته جعل السفن ثقيلة الحركة .. إن الدبابة هى أبطأ شىء فى ميدان القتال .. وما تكسبه من المناعة تفقده فى خفة الحركة ..

يحاول انطونيو أن يسد على أسطول أوكتافيوس الطريق من الجنوب .. ثم يحاول ممارسة التقنية التى وجدها جيدة .. أن يقتحم السفن بمقدمات سفنه ..

يقف على ظهر سفينته صارخًا :

ـ « لماذا لا يندفع هؤلاء الحمقى أسرع من هذا ؟ »

يقول مساعده الخائف :

ـ « معظم المجدفين قد هلكوا بالملاريا يا سيدى .. إن أعداد من يحركون السفن قليلة »

حتى من موضعها أدركت (عبير) المشكلة ..

هرعت إلى الملكة (كليوباترا) التى تنتظر الأخبار فى مخدعها الفاخر بقاع السفينة ، وقالت :

ـ « فى الحقيقة يا مولاتى .. سفن (أكتافيوس) أخف وأكثر رشاقة .. إنها تراوغ كالثعالب »

تنهدت الملكة وقضمت تفاحة .. لكنها نسيت أن تبتلعها من فرط التوتر لذا ألقتها جانبًا وقالت :

ـ « أوف ! اعزفى لى لحنًا يريح الأعصاب يا (شرميون) »

هكذا اتجهت (عبير) إلى الهارب .. لم تكن تعرف كيف تضرب وترًا واحدًا ، لكن ـ كما يحدث فى فانتازيا ـ بدأ النغم يتصاعد راقيًا حالمًا ..

ترى ماذا يحدث لهم عندما ينتهى (أنطونيو) ؟

هذا مقلق .. من الخير أن ينتصر ذلك الأحمق ..

وعلى السطح كانت سفن (أوكتافيوس) تقترب من سفن (أنطونيو) .. تلتحم بها ثم تطلق عليها سيلاً من السهام المشتعلة والقذائف من المنجنيق .. بهذا كانوا يقضون على كل بحار على السطح ..

ما أفظع الحرب الأهلية ! أن يقتل المرء أخاه والجار جاره .. كلهم رومان .. لكن الغضب قد استبد بالعقول والقلوب ..

ومن بعيد تحول الأفق إلى شعلة نار ..

إن معركة (إكتيوما) فى ذروتها الآن ..

* * *

8ـ النصر الزائف ..

بعد ساعات بدا بوضوح أن الحرب لا تسير فى الاتجاه الذى أرادته (كليوباترا) .. سفن (أنطونيو) تحترق وتغرق ..

انتقام (أوكتافيوس) الرهيب يتحقق ..

هنا فقط نهضت (كليوباترا) وكانت (عبير) تحسبها مشلولة القدمين .. نهضت متجهة إلى السطح حيث كان البحارة المذعورون يراقبون المعركة فى الأفق .. بصراحة لا أعرف كيف تصلهم النتائج فى هذا الزمن حيث لا يوجد اتصال لاسلكى ولا نظارات مقربة ولا تلسكوب ولا صور من القمر الصناعى ..

ازداد ذعر البحارة حينما فطنوا إلى أن الملكة تقف وسطهم .. قالت وهى ترمق الأفق :

ـ « (أجريبا) بارع بحق .. »

ثم قالت لقوّادها الذين التفوا حولها :

ـ « أديروا الدفة ! نحن عائدون إلى الإسكندرية ! »

نظرت لها (عبير) فى ذهول .. هل تتخلى عن (أنطونيو) بهذه البساطة ؟ لكن (كليوباترا) كانت ملكة وكانت ترى المشهد من منظور أوسع من منظور الحب الضيق .. إن هذا النصر يعنى أن (مصر) صارت مستعمرة رومانية ..

يجب أن تعود إلى (مصر) وترى ما يمكن عمله .. إن (أنطونيو) يستطيع العناية بنفسه ..

هكذا ـ فى أشهر حركة نذلة عرفها التاريخ ـ استدارت سفن (كليوباترا) مبتعدة .. الواقع أن التاريخ لم يكن منصفًا جدًا .. كما قلنا كانت لدى الملكة مهام أضخم من الموت مع حبيبها ..

سألتها (عبير) عن هذا الذى فعلته ، فقالت :

ـ « كنت فى مركبى وبين جنودى .. أزن الحرب والأمور بفكرى

قلت روما تصدعت فترى شطرًا من القوم فى عداوة شطر ..

وتبينت أن روما إذا زالت عن البحر .. لم يسد فيه غيرى ..

كنت فى عاصف .. سللت شراعى .. فانسلت البوارج إثرى ..

علم الله أنى خذلت حبيبى .. وأبا صبيتى وهو عونى وذخرى ..

والذى ضيع العروش وضحى .. فى سبيلى بألف قطر وقطر .. »

رآها (أنطونيو) وهو وسط القتال ..

رآها (أنطونيو) تتخلى عنه ..

وفى هذه اللحظة بالذات أدرك أنه خسر المعركة وأن افتقاره للخبرة البحرية كان خطأ فادحًا ..

لهذا أمر بتجهيز قارب صغير له ولرجاله من الخاصة .. وسرعان ما كان يثب فى القارب .. وسرعان ما كان يبتعد تاركًا الرومان من رجاله ملتحمين فى المعركة الخاسرة .. يبدو أن هذه ثانية أشهر حركة نذلة فى التاريخ ..

لقد انتهت معركة أكتيوما ..

معركة صغيرة قصيرة لكن لها نتائج جمة ..

لقد سقطت (مصر) فى قبضة الرومان .. هكذا انتهى عصر البطالمة .. لن يخرج الرومان من (مصر) إلا بيد (عمرو بن العاص) ..

أطلق (أوكتافيوس) على نفسه لقب (برنسبس أوجستس) توطئة لأن يمنح نفسه لقب إمبراطور ، وبهذا انتهى عصر الجمهورية الرومانية وصار (أوكتافيوس) أول إمبراطور فى تاريخ روما ..

وفى (مصر) أعلنت (كليوباترا) أن قواتها المشتركة مع (أنطونيو) انتصرت ، وأمرت بأن تقام الاحتفالات تكريمًا لهذا النصر العظيم .. وفى الشوارع راح الناس يهتفون باسم (كليوباترا) و(أنطونيو) ..

* * *

اسمع الشعب (ديون) .. كيف يوحون إليه

ملأ الجو هتافًا .. بحياتى قاتليه

أثَّر البهتان فيه .. وانطلى الزور عليه

يا له من ببغاء .. عقله فى أذنيه

(أحمد شوقى بك)

* * *

عرفت (عبير) وهى فى قصر كليوباترا أن أغلب أفراد جيش (أنطونيو) قد تخلوا عنه .. لقد فقد الرجل 12 ألفًا من الفرسان .. وفقد 19 فيلًا ..

وحينما وصل الرجل إلى الإسكندرية لم يكن لديه عدد كاف من القوات .. لقد خسر الحرب قبل أن يبدأ ..

فى هذا الوقت دخلت (شرميون) على (كليوباترا) تخبرها بالحشود الهاتفة فى الخارج :

- « الجماهير يا مليكة بالشط .. يموجون فى حبور وبشر

سرهم ما لقيت فى إكتيوم .. من ظهور على العدو ونصر » ..

هتفت (كليوباترا) وهى تغطى وجهها :

- « يا لإفك الرجال .. ماذا أذاعوا ؟ كذب ما رووا صراح لعمرى

أى نصر لقيت حتى أقاموا .. ألسن الناس فى مديحى وشكرى ؟ »

هنا فوجئت (عبير) بنفسها تقول :

- « ربة التاج ذلك الصنع صنعى .. أنا وحدى وذلك المكر مكرى

كثرت أمس فى الإياب الأقاويل .. وظن الظنون من ليس يدرى

فأذعت الذى أذعت عن النصر .. وأسمعت كل كوخ وقصر »

كادت تضرب خديها غيظًا .. فهى لا تعرف شيئًا عن الموضوع ، لكن (أحمد شوقى بك) الشاعر العظيم أصر على أن تكون (شرميون) هى المسئولة عن هذا الخبر الكاذب ..

وقدرت (عبير) أنها على الأرجح ستدفع ثمن هذا غاليًا ..

هنا كان (أنطونيو) قد وصل ..

ذهب إلى حبيبة قلبه (كليوباترا) .. لقد خسر الحرب لكنه لم يخسر الحب على الأقل .. لابد أنها كانت تملك آلاف المبررات التى تفسر بها قرارها على هذا النحو ، ولابد أنه أصغى فى اهتمام وصدق كل شىء ..

كانت (عبير) تقدم لهما الشراب ولم يفتها أن تتأمل القائد العظيم الذى تراه لأول مرة ..

كانت له ملامح (شريف) .. لا شك فى هذا .. ذات الوجه الوسيم .. لكن وجه (شريف) ناعم خال من القسوة وخبرات الحياة المريرة ، إلا أن كليهما يملك ذات العينين الحالمتين .. فقط هناك فارق ضخم بين الرجلين .. أحدهما لم يعرف الحب أصلاً ، والآخر ضحى بكل شيء وكل مجد من أجل الحب .. طبعًا أنت تعرف من هو من ..

قال للجمع الجالس والحاشية وهو ينهض ملوحًا بكأسه :

ـ « قيامًا نشرب الخمرا .. على حب (كليوباترا) »

قالت (كليوباترا) :

ـ « على حبك (أنطونيو) .. على الجيش .. على (مصر) ..

قال قائد رومانى جالس :

ـ « على (روما) »

فقالت (كليوباترا) فى ضيق :

ـ « دعوا (روما) .. ولا تجروا لها ذكرا

فما (انطونيو) منها .. وإن كان ابنها البكرا

ولكن تحت أعلامى .. يقود البر والبحرا »

ماذا جرى ؟ لماذا يتكلمون بالشعر ؟ ثم فطنت (عبير) إلى أنها الآن فى موقف آخر من مواقف مسرحية (مصرع كليوباترا) لـ (أحمد شوقى بك) ..

هؤلاء السادة يحتفلون بالنصر بينما أسطول (أنطونيو) قد احترق ، والأخ (أوكتافيوس) قادم إلى الإسكندرية ليجهز نهائيًا على (أنطونيو) .. ولو كانت فى هذا العصر فضائيات أو صور أقمار صناعية لشنق الشعب المصرى هذين بعد دقيقة ..

كان الرئيس الأمريكى (جونسون) يعانى المتاعب فى (فيتنام) فاقترح عليه قائد أمريكى محنك :

ـ « أعلن انتصارك ثم انسحب ! »

وهذا يدل على فهم تام لسيكولوجية الجماهير .. النصر لمن يعلن أنه انتصر .. من الصعب وسط كل هذا الضباب أن تعرف من انتصر ومن انهزم ، وبعد أن تملأ الجماهير الشوارع احتفالاً بالنصر فمن العسير أن تقنعها أنها هُزمت .. (يا له من ببغاء .. عقله فى أذنيه) ..

لشد ما يفعل خداع النفس بنا من مهازل ! هؤلاء القوم بدءوا بخداع الآخرين ، والآن هم يخدعون أنفسهم .. إنهم سعداء فعلاً ..

قال (أنطونيو) وقد بدأ لسانه يلتوى بفعل الخمر :

ـ « غدًا أواجه (أوكتافيوس) على البر .. سوف يدفع لى الثمن غاليًا » ..

* * *

9ـ الرحيل الثلاثى ..

تدور الأحداث بسرعة بعد ذلك ، والكل يعرف القصة على كل حال ..

لقد هزم (أنطونيو) على البر وجاءه خبر كاذب بأن (كليوباترا) انتحرت .. هكذا ثبت سيفه فى الأرض وألقى بنفسه على نصله ..

فى الوقت ذاته كانت (كليوباترا) تحاول أن تلعب اللعبة ذاتها مع (أوكتافيوس) .. لقد نجحت مع (يوليوس قيصر) العظيم ومع (أنطونيو) .. فلماذا تفشل مع (أوكتافيوس) ؟ قررت أن تقابل الرجل وقد وضعت أرقى أنواع العطور والمساحيق .. واستعملت ذات العرض المبهر بالراقصات والموسيقا .. منحت المحارب الخشن جو الأنوثة الناعم الذى لم يره فى حياته خاصة مع زوجته ذات الشارب ..

لكنها اكتشفت حقيقة مروعة .. الرجل لا يبالى بها .. إما لأنه يفتقر للرجولة .. وإما لأنه غبى .. وإما لأنه مستقيم أكثر من اللازم والغضب يعمى عينه فعلاً ..

لابد أنه قال لها شيئا على غرار :

ـ « هذه الألاعيب لا تنطلى على يا مدام » ..

فلما تأوهت فى دلال قال لها :

ـ « يبدو أنك مصابة بإمساك مزمن .. أقترح أن تكثرى من أكل الخضراوات » ..

ولما أرخت جفنيها لتوقعه فى شراك أهدابها الكثيفة اقترح عليها أن تجرب قطرة عيون تحوى (الكلورامفنيكول) ..

هكذا توصلت إلى أنه رجل طموح .. وكانت قد بلغت من السن والحكمة ما يكفى لتعرف أن الرجل الطموح لا يبالى بالمرأة إلا إذا عاونته على استكمال هذا الطموح ..

هكذا غادرها (أوكتافيوس) دون أن تحقق شيئًا ..

على الباب قابل (شرميون) التى جلبت له بعض الشراب ، فجرعه وهو لا يرفع عينيه القاسيتين عن وجهها .. ثم قال وهو يعيد لها الكأس :

ـ « فقط فى عالم الأحلام يمكن أن يهزم (أكتافيوس) .. تذكرى هذا يا صغيرة .. إن عبير النصر يزكم أنفك » ..

وانصرف تاركًا إياها فى حيرة .. لماذا تكلم عن الأحلام ؟ مع وصيفة صغيرة لا قيمة لها .. ولماذا استعمل لفظة (عبير) ؟ إن رأسها يوشك على الانفجار ..

هل تناديه لتسأله إن كان (شريف) ؟ حتى فى فانتازيا هناك قواعد .. والوصيفة لا تنادى إمبراطور روما لتسأله سؤالاً كهذا .. ثم إن الرجل سمج ثقيل الظل ولن يرد عليها أصلاً ..

وفى اللحظة ذاتها جاء الرجال يحملون جثة (أنطونيو) الغارقة بالدماء ..

صرخت (كليوباترا) وهى تضرب جيدها بكفها :

ـ « آه ! (أنطونيو) حبيبى .. أدركونى بطبيب !

ما ترون الأرض تروى .. من دم الليث الصبيب ؟ »

قالت لها (عبير) فى تأدب :

ـ « إحم .. ألا يكون الأمر أسهل يا مولاتى لو قلته نثرًا لا شعرًا ؟ على الأقل سيوفر هذا وقت تأليف الكلام الموزون المقفى »

لكن (كليوباترا) كانت مصرة على الشعر .. لقد اندمجت أخيرًا ودخلت فيما يطلقون عليه (طور السلطنة) ..

وقفت وسط القاعة وصاحت وهى ترفع ذراعيها :

ـ « أيها الجند مات قيصر فابكوا .. معى السيد الجسور الوهوبا

شبكوا ساعديه فوق صدر .. كان فى الروع بالمنايا رحيبا »

ثم هتفت فى (شرميون) وهى تحمل سلة التين :

ـ « سأخلو إلى مخدعى .. أريد أن تكونى هناك معى » ..

هكذا تبعتها (عبير) إلى المخدع متسائلة عما تزمعه هذه المرة ..

جلست (كليوباترا) فى الفراش .. ونظرت إلى التقويم المعلق .. الثانى عشر من أغسطس عام 30 قبل الميلاد .. فى مثل هذا اليوم انتحرت (كليوباترا) ..

قالت لـ (عبير) :

ـ « يا مرحبا بالسلة .. والرُقُب المطلة .. الكافياتى الذلة »

طبعًا .. هذا منطقى .. هى تعرف أن (أكتافيوس) لن يكون (جنتلمان) ولن يتورع عن عرضها فى قفص فى الأسواق .. هكذا تفضل الملكات أن يخترن زمان ومكان وطريقة موتهن ..

أمسكت بالسلة وفتحتها فأصدرت الكوبرا فحيحًا شريرًا ..

مدت يدها فالتقطت الثعبان ورفعته لتتأمله ثم قالت :

ـ « هلمى الآن منقذتى هلمى .. وأهلاً بالخلاص وقد سعى لى

شربت السم من فيك المفدى .. بسلطانى وزدت عليه مالى

وبعض السم ترياق لبعض .. وقد يشفى العضال من العضال »

كان من واجب (عبير) أن تبكى وتلطم الخدين .. لكنها ظلت تراقب الموقف فى فضول علمى بحت .. رأت (كليوباترا) تدس الثعبان فى صدرها .. لحظات من التوتر ثم شهقت الملكة .. شهقت وانحدر رأسها جانبًا .. وبدأت ترتجف .. ما أسرع هذا السم وما أشد فتكه !

فقط كانت تشير إلى سلة أخرى على بعد خطوات من الأولى ..

ماذا تريد قوله ؟ هل الجرعة غير كافية ؟ مستحيل .. لو لم يكـن هذا وجه امرأة تموت فكيف يكون الموت إذن ؟

راحت (كليوباترا) تلقى الشعر الذى لا يتسع له المجال هنا لأنـه ثلاث صفحات كاملة ، ثم لفظت أنفاسها الأخيرة ..

فى هذه اللحظة انفتح الباب واندفعت الوصيفة الأخـرى أوروبية الملامح ، وقالت لـ (عبير) :

ـ « لقد انتحرت سيدتنا ! أسرعى ! يجب أن ننتحر نحن أيضًا .. هناك ثعابين أخرى .. الملكة أعدت لنا سلالاً كثيرة ! »

لماذا لم تقل هذا واكتفت بالإشارة ؟ قالت (عبير) فى ضيق :

ـ « والسبب ؟ أنا لست راغبة فى الانتحار اليوم خاصة بهذه الطريقة »

ـ « أولاً هذا هو واجب الوصيفة المخلصة .. بعد ما تلدغك الكوبرا ستقولين :

ـ « (كليوباترا) .. ويا لهفى .. عليك يا (كليوباترا) »

ـ « وصيفاتك فى الدنيا .. وصيفاتك فى الأخرى »

قالت (عبير) :

ـ « هل هذا مبرر كاف ؟ أن أخدمها فى العالم الآخر ؟ »

ـ « السبب الثانى وهو الأهم هو أن الناس فى الخارج موشكة على اقتحام القصر .. لقد انكشفت الخدعة ، وقيل لهم إن مصدر الإشاعة وصيفة تدعى (شرميون) ! سوف يمزقونك إربًا ! »

مستحيل ..

لكن صوت الجلبة بالخارج وصوت تحطيم الأبواب يقول بوضوح إنه لا مستحيل هنالك ..

ـ « وماذا أفعل ؟ »

ـ « يا سلام ! انتحرى الآن ! هذا هو ما أقوله لك .. »

تقلصت أحشاء (عبير) .. إما الكوبرا أو الموت بيد الجماهير الغاضبة .. ألا يوجد خيار ثالث ؟ ألا يمكن الاتصال بصديق ؟

الصديق ظهر فعلاً .. رأته يتقدم ليدخل المخدع فى تؤدة فيلقى نظرة على الجثة الراقدة .. على وجه الوصيفتين ..

قال لها وهو يدس يديه فى جيبى البذلة :

ـ « أعتقد أننا مخطئون هذه المرة كذلك .. (شريف) ليس هنا .. لقد كان الأمر يتعلق بأسطول آخر ! »

قالت له (عبير) فى غيظ :

ـ « كل هذه المعاناة من أجل لا شىء ؟ »

ـ « هذه هى الحقيقة » ..

ثم أمسك بمعصمها لتنهض وقال وهو يشير إلى الباب الرئيس :

ـ « من مصلحتك أن تفرى الآن .. كل الشعب المصرى على الأبواب الآن للانتقام من الأفعى التى خدعته .. أنت طبعًا وليست (كليوباترا) .. »

ثم مد يده فالتقط سلة وطوحها إلى الجارية الأوروبية وقال :

ـ « يمكنك الانتحار يا عزيزتى .. فهم لن يجدوا شرميون .. لذا سيقررون الانتقام من أية فتاة يجدونها .. »

شكرته فى رقة وأخرجت الثعبان من وسط التين ..

قال المرشد لـ (عبير) وهو يتأبط ذراعها خارجين من قصر (كليوباترا) المنيف :

ـ « أعتقد أننا سنجرب أسطولاً آخر موشكًا على الغرق .. »

ـ « لا أعرف سبب لعنة الأساطيل التى حلت بفانتازيا .. إن البلل صار يفسد أفكارى .. دعك من دوار البحر .. عدنى بأن هذه آخر مرة »

قال باسمًا :

ـ « إن غرق الأسطول لحظة فارقة فى التاريخ .. لحظة تمثل المجد والكبرياء والغرور وهم يهوون إلى أعماق المحيط ، حيث تلتهم الأسماك كل شىء .. سوف تفهمين هذا أكثر مع القصة القادمة »

* * *

10ـ مكان فى البحر المتوسط ..

إنها فى مكان مظلم كئيب ..

رطوبة شديدة وهناك أكثر من مشعل على الجدران .. رائحة الزيت الزنخ هذه ..

إنها راقدة على حشية على الأرض وثمة فأر صغير يتشمم قدمها .. أطلقت صرخة جديرة بامرأة تكتشف أن من يتشمم قدمها فأر ..

هنا شعرت بيد خشنة على فمها .. وفى الظلام سمعت من يقول :

ـ « صه يا بلهاء ! سوف تفسدين عملية الفرار ! »

إذن هذا سجن .. وإذن هى فى سبيل الفرار منه ..

استطاعت أن تدرك أن من كمم فمها يتكلم لغة لاتينية عامية .. تلك اللغة التى تحولت إلى اللغة الإيطالية فيما بعد ..

كان رجلاً قوى البنيان .. وقد أدركت من شكل أنفه وطريقة تصفيف شعره أنه رومانى ..

ـ « من أنت ؟ »

ـ « أنا (فيريس) .. هلمى »

نهضت معه وهى لا تعرف ما ينوى عمله ..

كانت هذه زنزانة .. خارج الزنزانة كان حارس مهشم الرأس يرقد على الأرض وسط بركة من الدم .. السيناريو التقليدى المعروف للفرار من السجون .. لابد أن يتم تهشيم رأسه بإناء من فخار .. لقد كانت بقايا الإناء تتناثر حول الأسير ..

الغريب (فيريس) يركض وسط عدد من الزنازين .. يعالج أبوابها بمفاتيح يبدو أنه سلبها من الحارس .. من الداخل تتصاعد أصوات تتكلم بالرومانية ..

ـ « هلم أيها المنقذ .. أسرع ! »

لم يتغير شىء تقريبًا .. نفس الزمن ـ تقريبًا ـ ونفس الطابع الرومانى .. توشك أن تتحول إلى مواطنة من (روما) فى فانتازيا هذه .. لا تعرف سبب كثرة المغامرات التى خاضتها والتى كانت فيها مواطنة رومانية أو عدوًا لـ (روما) ..

تنظر إلى قدميها وهى تركض .. أول ما تراه عندما لا تتاح لها مرآة .. فعلاً هى تلبس العباءة الرومانية إياها والصندل ذا الشرائط .. شعرها الأشقر يتطاير فى مجال إبصارها ..

إلى أين هذه المرة وماذا يحدث بالضبط ؟

من الزنازين يتحرر عدد من السجناء .. كلهم من الرومان ..

يركضون عبر الممرات المظلمة ..

يهتف أحدهم وهو يوزع عليهم السلاح :

ـ « استوليت على هذا السلاح من غرفة الحرس .. »

يركضون فى الشوارع المظلمة حيث تنبح الكلاب ..

قدرت (عبير) أنها الأسيرة الوحيدة الأنثى .. على الأرجح تم هذا الترتيب كى يتم إشراكها فى المغامرة ..

كان هناك حارس يقف فى الظلام وظهره لهم ..

اندفع أحد السجناء الفارين ليولج سيفه بين لوحى كتف الحارس ..

إن عددهم الآن نحو عشرة .. إلى أين الفرار ؟

يصيح فيهم ذلك الذى أنقذها والذى يدعى (فيريس) :

ـ « لن نرحل قبل أن نتسلل إلى قصر الحاكم .. »

هناك تحت بناية من طراز عتيق يتوقف المتسللون .. يقف أحدهم ويرفع كفيه متشابكتين فيصعد آخر عليهما ليتسلق إلى الشرفة .. ثم إذ يتوغل داخلها يدلى بحبل غليظ للرجال .. هكذا يتسلق الجميع ، لكنها آثرت أن تبقى حيث هى .. فقط ترقب الظلام فى توجس وهلع ..

سمعت صراخًا .. سمعت سيوفًا ترتطم .. سمعت صوت حاكم يقتل ..

ثم من جديد راح الرومان يتواثبون من الشرفة ..

ـ « قد قضينا على الحاكم ورجاله .. هلموا ! »

السيوف مخضبة بالدم .. والأنفاس لاهثة .. والعرق يغمر الثياب .. بينا هم يركضون إلى بوابة المدينة .. هناك التحموا مع الحراس فقتلوهم ، وسرعان ما كانت عشرة خيول تركض عبر السهول المظلمة مبتعدة عن المدينة ..

أدركت (عبير) أنها مدينة ساحلية كما هو واضح .. شىء ما فى طراز البناء بدا لها مألوفًا ..

كانت تنظر إلى الخلف بينما حصانها يركض .. رأت ضوء الفجر القرمزى يغمر الأفق .. العباءة القرمزية سوف تستحيل إلى عباءة وردية قريبًا جدًا ..

فجأة سمعت من أحد مبانى المدينة التى فرت منها صوتًا مألوفًا يتنحنح .. ثم رفع عقيرته :

ـ « الله أكبر .. الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله .... حى على الصلاة ! »

* * *

القائد الرومانى فى معسكره كان فى غاية السرور بهذه المغامرة الجريئة ..

انفجر ضحكًا وهو يجلس على مقعده ، وقضم قضمة من دبوس الدجاجة الذى يمسك به كعادة القادة الرومان ، وصب لنفسه المزيد من النبيذ ، ثم أمر بأن يقدم الشراب لجميع الأسرى الرومان الفارين ..

ـ « فررتم وذبحتم الحاكم العربى ورجاله ! أنتم رائعون ! »

شرب (فيريس) ما فى كأسه جرعة واحدة ثم قال :

ـ « ليس هذا وقت إطراء المغامرة أيها القائد .. لابد أن تعرف كل شىء عن الأسطول الذى يحتشد خارج (طرابلس فينيقيا) .. لقد أعد (معاوية بن سفيان) عدته لأن يغزو البحر ويصل إلى القسطنطينية .. لهذا رتبت لعملية الفرار هذه .. كان لابد من إبلاغكم »

قال القائد الرومانى مفكرًا :

ـ « (معاوية) .. هذا الرجل شديد الطموح .. يخيل لى أن فكرة السيطرة على البحر المتوسط لا تفارقه لحظة .. إن العرب يطلقون عليه (بحر الروم) ومن الواضح أنه يريد تغيير الاسم »

* كانت هى تصغى لما يقال وهى فى أسوأ حال ..

هذه المرة هى جزء من جيش الإمبراطورية الرومانية التى تحارب المسلمين .. عليها أن تسمع أقذع السباب يوجه للعرب ، بل أن تشارك فيه .. إنها هنا رومانية تدعى (هيلانة) ويبدو أنها قد سقطت فى أسر العرب عندما استولوا على تلك المدينة المدعوة (فينكس) ..

من المفترض حسب دورها فى (فانتازيا) أن تمقت العرب .. هذا الرجل (فيريس) هو بالنسبة لها بطل .. قام بتهريب الأسرى وقتل حاكم المدينة وحررها .. إذن هو بطل إذا ما كنت تقف فى الجانب الآخر ..

لكنها شعرت بحيرة بالغة .. هل من المفترض أن تخون الرومان وأن تنقل للعرب تفاصيل ما يقال ؟ ودت لو فعلت ذلك لكن كيف ؟

عندما دخلت الخيمة التى أعدوها لها جلست على الأرض تفكر فى عمق ..

سمعت من يتنحنح وانزاح ستار الخيمة .. على ضوء المشاعل ترى جنديًا رومانيًا يقف يحرس من بعيد .. وترى وجه (فيريس) ..

وجه صلب قاس قد من صخر .. هذا الرجل ليس خصمًا سهلاً أبدًا ..

قالت له :

ـ « أعتقد أننى مدينة لك بالشكر .. »

هز رأسه وقال وهو يجلس جوارها :

ـ « لا تقلقى .. النساء آخر شىء أفكر فيه الآن .. إن حقدى على العرب يعمينى عن أى شىء آخر .. »

ثم راح يعبث فى النار شاردًا :

ـ « منذ قرروا أن يكون لهم أسطول والمتاعب تنهال على (روما) .. هؤلاء البدو القادمون من الصحراء لا يفقهون شيئًا عن عالم البحر .. (معاوية) هذا بذل الكثير من الجهد حتى تمكن من إقناع الخليفة (عثمان بن عفان) بارتياد البحر .. جاء بمن يدعى (عبد اللـه بن قيس الجاسى) وكلفه بتشكيل الأسطول ، وبـه تمكن من غزو

(قبرص) .. تصورى ! (قبرص) ! أهم جزيرة استراتيجية فى البحر المتوسط كله صارت للعرب ، وإن ظل أهلها أوفياء لـ (روما) .. واستعان بعدها بـ (أبولا باروس) »

ـ « هل هناك مع المسلمين من يدعى (أبولا باروس) ؟ يبدو أن الأسماء غريبة عندهم فعلاً .. »

فكر الرومانى قليلاً ثم قال :

ـ « أعتقد أن العرب ينطقون اسمه هكذا : (عبد اللّه بن أبى السرح) .. الذى حكم مصر .. وغزا (ليبيا) .. ثم بدأ (معاوية) يسيطر على شواطئ (الشام) و (آسيا الصغرى) .. بل إنهم هزموا أسطولاً بيزنطيًا يقوده الإمبراطور (كونستانتين) نفسه ، واستولوا على (رودس) .. هذا ما أثار قلق الإمبراطور .. لهذا جمع أسطولاً مهيبًا يقدر بألف سفينة .. إنه ينوى الانتقام من العرب على ما فعلوه بنا فى (إفريقيا) .. »

قالت فى لهجة محايدة :

ـ « معنى هذا أن العرب يتعلمون بسرعة .. »

قال بضحكة وحشية :

ـ « ليس بالسرعة المطلوبة .. إن المواجهة قادمة بين من يعرفون كل شىء عن البحر ، ومن لا يعرفون إلا الصحراء .. سوف نرى .. سوف نرى »

ونهض مغادرًا الخيمة ..

وجلست هى ترمق النار عاجزة عن اتخاذ القرار الصائب ..

(عبد الله بن أبى السرح) يتحول بلسانهم إلى (أبولا بـاروس) .. كما تحول (أبو القاسم الزهراوى) إلـى (ألبوكاسيس Albucasis) ، وتحول ابن رشد إلى (أفيرويز Averroes) فى ظروف غامضة ..

إن أيامًا عصيبة تنتظرها هنا .. لا شك فى هذا ..

* * *

11ـ المواجهة ..

وصلتها الأخبار أن (معاوية) رضي الله عنه أعد أسطوله من أسطولى (الشام) و (مصر) .. تحت إشراف رجله (أبولا با) ... (عبد الله ابن أبى السرح) ..

كانت المواجهة تقترب ولا شك فى ذلك ..

وقرب يوم القتال اجتمع الإمبراطور (قنسطنطين) بالقواد ليعطيهم ما نسميه اليوم بالتوجيه المعنوى للقوات ..

كان إمبراطورًا رومانيًا كما نعرفهم .. رجلاً رخوًا بدينًا أنانيًا نذلاً .. ربما لم يكن كذلك فى الحقيقة لكن (عبير) لا تعرف إلا النمط النيرونى لتطبقه على الجميع ..

ـ « إن المسلمين بحاجة للأخشاب لبناء سفنهم .. وهذه الأخشاب يمكنهم الحصول عليها من ساحل الأناضول حيث تكثر أشجار السرو .. مهمتنا أولاً هى إحباط تقدم المسلمين نحو (القسطنطينية) .. ثانيًا السيطرة من جديد على جزر البحر المتوسط .. ثالثًا ـ وهو الهدف الأهم ـ غزو (مصر) .. »

قال قائد رومانى مزدان بالدروع مدجَّج بالسلاح :

ـ « الهدف الرابع هو أن ننتقم لهزائمنا فى (أفريقيا) .. »

اتسعت عينا الإمبراطور ونفخ من منخريه وقال :

ـ « أيها القائد (أيولوس بروفاندوس) .. أرجو ألا تقاطعنى ثانية بملحوظات سخيفة .. »

ثم استكمل كلامه :

ـ « الهدف الرابع هو أن ننتقم لهزائمنا فى (أفريقيا) .. »

كانت (عبير) تنظر إلى البحر حيث اصطفت سفن الأسطول الرومانى ..

لم تكن تتذكر هذه المعركة ولا ما حدث فيها ، لكنها كانت تعرف أنها موجودة فى ركن ما من كتب التاريخ المدرسية .. ركن مظلم لا تتذكره أبدًا بعد الامتحان .. فقط كانت متأكدة من أنها رأت الأسطول الرومانى المرعب فى موقعة (أكتيوما) .. هؤلاء الناس كانوا خبراء معارك بحرية حقًا .. دعك من سرعة الالتفاف وتكتيكات الحصار .. إلخ .. كل السحر الذى كان يمارسه (أجريبا) مع (أنطونيو) ..

الخلاصة أن فرصة العرب شبه معدومة .. يجب أن تكون الحرب برية فقط .. يجب أن يعرفوا هذا ..

اتجهت لتعنى بطيورها الأليفة كى تنسى همومها .. عندما ينظر لها الحمام تلك النظرة الصافية التى تجمع بين الاهتمام والحب والخوف ، تنسى كل هموم العالم ..

تحلق الحمامة فى سماء الأناضول .. فوق السفن المتراصة فى البحر ، فتتمنى (عبير) لو أن لها جناحيها ...

* * *

(ليكيا) .. آسيا الصغرى ..

من موقعها المرتفع على اليابسة ترى (عبير) وقائع المعركة ..

فى البداية نزل عدد كبير من العرب إلى البر فتفرقوا هناك .. يبدو أن هذا نصف عدد القوة المهاجمة ..

قالت جارية حبشية تقف جوارها :

ـ « هذا أسلوب العرب فى المعارك البحرية .. إن قائدهم يدعى (بُسر بن أبى أرطاة) .. مهمة هذه المجموعة تأمين الساحل ومراقبة المراسى لئلا تكون سفن العدو متوارية هناك .. »

رفعت (عبير) إصبعها وبدأت تعد سفن العرب ..

ـ « عشرة .. عشرون .. ثلاثون .. »

قالت الجارية فى نفاد صبر :

ـ « مائتا سفينة .. لا تتعبى نفسك .. لقد أخبرنا الجواسيس بذلك »

ـ « والرومان لديهم ألف سفينة .. هذه ليست معركة .. إنها مذبحة .. »

ـ « بل هو سيرك .. الرومان لا يقدرون على الحياة من دون سيرك يسليهم .. سيرك يلقى فيه الضعفاء للأسود .. سوف ترين كيف يلقون بالعرب للأسود الآن ! »

نزل قارب من إحدى سفن العرب اتجه نحـو سفن الرومان .. ووقف بحار عربى يخاطب الرومان عن طريق مترجم ..

قالت الجارية :

ـ « إن العرب يخيّـرون الرومـان بيـن المواجهـة علـى البر أو البحر .. »

ارتجفت (عبير) وسألت فى لهفة :

ـ « وماذا قال الرومان ؟ »

ـ « هل هذا سؤال ؟ طبعًا طلبوا المواجهة فى البحر .. هذه هـى أرضهم التى يسيطرون عليها ويعرفون أسرارها .. سوف يفقدون هذه المزية لو نزلوا إلى البر .. »

هكذا عاد القارب العربى بمن عليه ليبلغ القواد ..

الآن يدنو الأسطولان إلى مرمى السهام .. فتنطلق السهام من السفن نحو بعضها .. سهام مشتعلة وعادية .. ثم بدأ قذف الأحجار من صناديق مليئة بها فى أعلى كل صار .. هذه الصناديق يطلقـون عليها اسم التوابيت ، ويتوارى فيها قاذفو الأحجار لكنهم يخرجـون من حين لحين ليقذفوا أحجارًا ثقيلة على السفن الأخرى ..

هذه هى المدفعية فى عصر ما قبل اختراع المدفعية ..

تذكرت (عبير) طائرات (زيرو) تئز فوق المدمرات الأمريكيـة فى بيرل هاربر وابتسمت .. حتى (بيرل هاربر) صارت متخلفـة مضحكة بمقاييس القرن الواحد والعشرين ..

فجأة رأت مشهدًا غريبًا ..

غواصون من العرب يثبون فى البحر .. يسبحون كالأسماك من سفينة لأخرى فيربطون شبكة معقدة من السلاسل .. يربطون سفن العرب إلى بعضها ثم يربطون سفن الروم إلـى سفن العرب .. يتحركون بخفة كالضفادع البشرية .. يغوصون .. يصعدون ..

حاولت السفن الرومانية أن تمر بين سفن العرب ، لكن السلاسل منعتها من ذلك ..

شهقت (عبـير) وهـى تـرى سفينة رومانيـة عملاقـة تتحرك فتجر خلفها سفينة القيادة العربية .. السفينة التى تحمل (عبد الله ابن أبى السرح) نفسه ..

هنا وثب أحد الجنود إلى السلسلة فوقف عليها وهى مشدودة بين السفينتين ، وهوى عليها مرارًا بسيفه حتى قطعها .. فيما بعد سيعرف التاريخ أن اسم هذا الشجاع هو (علقمة بن يزيد العطيفى) ..

لقد تمَّ الالتحام ..

ورأت (عبير) المسلمين يمشون فوق السلاسل الغلاظ يقصدون سفن الروم .. وعندها تحول المشهد إلى بركة من الدم .. بركة تسيل من السفن وتطفو على مياه البحر ويقذفها الموج إلى الشاطئ ..

الضرب بالسيوف والحراب .. صراخ .. دم ..

شهقت الجارية ، وقالت وهى تغطى وجهها :

ـ « هل فهمت ما حدث ؟ المسلمون يعرفون أنهم لا يجيدون المعارك البحرية ، لذا حولوا المعركة إلى معركة برية ! أفقدوا السفن الرومانية القدرة على المناورة ثم تسلقوا إليها وأعملوا السيف فى جنودنا .. »

هذه إذن أول معركة برية تتم فى البحر .. وبقواعد البر !

لقد وصف المؤرخ (أرشيبالد لويس) المشهد بأنه (خطة غير عادية .. لقد ربط العرب سفنهم لبعضها فاستحال أن يخترقها الرومان .. واستخدموا خطاطيف طويلة تصيب الصوارى فتهشمها) ..

دامت المعركة عدة ساعات .. والبحر الذى كان قد بدأ يصطبغ بالأحمر صار الآن أحمر بالكامل .. فقط هناك بقع زرق تذكرك بلونه القديم .. وعلى الماء سبحت مئات الجثث ..

رأت (عبير) الإمبراطور يفر واثبًا إلى قارب نجاة .. لابد أنه سيتجه إلى (صقلية) ..

مائتا سفينة تمكنت من هزيمة ألف .. والألف يقودها سادة البحار ..

لقد انتهت معركة (ذات الصوارى) أمام عينى (عبير) التى لا تعرف أنها رأتها ..

يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة لكثرة صوارى السفن فيها .. صوارى 1200 سفينة ليست بالعدد الهين .. ويقال إنها سميت بذلك نسبة للمكان الذى جرت فيه .. إن المكان كان يعج بالأشجار التى تستخدم فى صنع صوارى السفن ..

قال المؤرخ (أرشيبالد لويس) : كانت معركةُ ذات الصوارى هى (أكتيوما) العرب .. فكما أن (أكتيوما) فرضت سيطرة (روما) على البحر المتوسط ، فإن (ذات الصوارى) فعلت الشىء ذاته بالنسبة للعرب ..

* * *

بعواطف متناقضة تقف (عبير) على الشط ترمق الجثث التى يقذفها الموج ..

خيرة شباب روما ممزقون .. مبعثرون ..

فى قلبها هى عربية راضية عن هذه النتائج ، وفى قلبها كذلك هى رومانية تملى عليها أحداث القصة أن تشعر بالثُّكل ..

فجأة شعرت بيد باردة مبتلة تمسك بذراعها ..

التفتت للخلف فرأت (فيريس) .. لكنه لم يعد هو .. هناك ضربة سيف مزقت وجهه بالطول إلى شطرين ، ويبدو أن ذراعه تهشم تمامًا لكنه كان يحمل كيسًا مليئًا فى الذراع الأخرى .. دعك من الدم الذى يبلل ثيابه فلا تعرف إن كان هذا دمه أم دم رفاقه ..

صاحت فى لهفة :

ـ « (فيريس) .. أنت حى ! »

وهرعت نحوه .. لكنه تلقاها بصفعة ألقت بها على الرمال ..

ـ « ماذا دهاك ؟ »

قالتها وبصقت الرمل الذى ملأ فمها ..

قال وهو يفتح الكيس :

ـ « كنت قد كلفت الصبية باصطيادها بالمقلاع .. كل تلك الحمائم التى كنت تربينها تحلق فوق رءوسنا إلى سفن العرب .. لقد جلب لى الصبية اليوم جثث الحمام الذى اصطادوه .. هذا حمام زاجل وهناك رسائل حول السيقان .. كل شىء عن خططنا .. عن توزيع السفن .. عن نوايا الإمبراطور .. كل شىء كان العرب يعرفونه مقدمًا .. كنت قد شككت فى أمرك لأنك كنت تراقبين الساحل ثم على الفور تتجهين للعناية بالحمام .. لقد تلقيت الجواب الآن وبعد ما خسرتْ (روما) المعركة وفقدت أسطولها .. »

ومن حولها وعلى الرمال تناثرت جثث الحمام الزاجل ..

لم يكن بوسعها إلا أن تفعل ما فعلت ..

لكنه يجرد سيفه الغارق فى الدماء الجافة .. ينوى الآن أن يلوثه بدم رومانى طازج ..

يرفع السيف فتشهق وتمد يدها تتقى الضربة كما فى لوحات (ديلاكروا) ..

هنا أمسكت يد ثابتة بذراعه .. ورأت المرشد ..

قال له :

ـ « معذرةً يا أخ (فيريس) .. واضح أن هذه ليست القصة المقصودة .. لا يمكن أن أسمح لك بقتلها من دون أن تجد ضالتها .. »

نظر له (فيريس) فى ثبات ومقت .. ثم أعاد سيفه إلى غمده ..

ساعدها المرشد على النهوض .. ونفض الرمال الملتصقة بخديها وشعرها .. ثم قال :

ـ « سوف نعود إلى الإسكندرية من جديد .. تذكرى أن تبتعدى عن مخزن الذخائر فى أول فرصة ممكنة ! »

* * *

12ـ لقد وجدونا !

البداية هذه المرة كانت قنبلة هوت على سطح السفينة ..

لقد صحت من نومها فى الظلام وهى ترتجف .. وأدركت أنها فى مكان خانق ضيق وأن الظلام فى كل مكان ، وأن هناك فأرًا كان يتشمم قدمها ثم فر .. الفئران كثيرة فى مغامرة اليوم ..

عندما تهوى قنبلة على سفينة أنت تختبئ فى قاعها ، فإن التأثير لا يكون محببًا على الإطلاق .. تشعر بأن كيانك كله يهتز .. أذناك تفقدان السمع والاتزان .. وفى أعماقك تتحرك كل كوابيس رهاب الأماكن المغلقة ..

ومن وسط الظلام صاح أحدهم :

ـ «لقد وجدَنا (نلسن) !»

* * *

كان هناك جنود يساعدون هؤلاء الذين احتشدوا فى قاع السفينة على الخروج ..

تسمع عبارات بالفرنسية ـ وتفهمها طبعًا ـ لكن الجو العام جو ارتباك مخيف ..

تصعد درجات خشبية فى الظلام وسط مجموعة أخرى من نساء وأطفال .. وعلى سطح السفينة ترى البحر وترى النيران تندلع من مكان ما فى الصارية .. ومن بعيد ترى الشاطئ وترى النيران تندلع من سفن أخرى ..

ماذا يجرى ؟ ما هذه الحادثة ؟ هناك أساطيل كثيرة غرقت فى التاريخ فمن العسير أن تتذكر هذه الحادثة بالذات .. هناك حروب غامضة مثل (حرب الثلاثين عامًا) و(حرب البوير) و.. و.. حروب لا تذكر منها إلا اسمها فأيها هذه الحرب ؟

كانت هناك قوارب نجاة .. وسرعان ما وجدت نفسها فى مشهد من فيلم (تيتانيك) .. النساء والأطفال فى قارب يتم إنزاله بالحبال إلى الماء ، بينما يحاول بعض الرجال الذين لا يصدقون أنهم سيموتون أن يزاحموا هؤلاء على الأماكن ..

جندى فرنسى يطلق الرصاص فى الهواء منذرًا كل من يحاول ان ينزل فى هذا القارب...

طفلة شقراء تبكى فتحتضنها (عبير) وتضمها بقوة .. هنا تهوى قذيفة مدفع على بعد أمتار منهما .. تنفجر فتتصاعد نافورة ماء إلى عنان السماء ..

القارب صار مزدحمًا يطفو بصعوبة بالغة .. معجزة هى ما يبقى كثافته أقل من واحد فيطفو ، ولا شىء آخر .. هناك بحار

فرنسى يجدف بلا انقطاع قاصدًا الشاطئ .. إنه يضغط بأسنانه على غليون منطفئ ولا يكف عن إطلاق الشتائم الفرنسية الرقيقة التى لا تجدها إلا فى معجم (لاروس) ..

قذيفة أخرى تهوى ..

نيران فى كل مكان .. دخان .. صراخ .. هناك الكثير مما يشغل كل حواسك : الروائح .. الأضواء .. البلل والنيران ..

هذا ليس عدلاً .. ليس عدلاً أن تغط فى النوم .. وبعد نصف دقيقة تجد نفسك فى الظلام وسط أمواج البحر الصاخب والقذائف تطير فوق رأسك ..

كان القارب يتحرك نحو الشط وهو لا يكف عن الاهتزاز ، بينما القنابل تجعل الأمواج أكثر شراسة .. يرتفع القارب لعنان السماء ثم يهبط ..

لكنه وصل إلى الشاطئ أخيرًا ..

كانت تجر قدميها وسط الرمال المبتلة وهى تحمل طفلين .. برغم هذا لم يكن الطقس باردًا .. أقرب إلى ليلة صيف هادئة ..

هناك على الشط وقف عدد من البدو يرمقون ما يحدث فى دهشة .. لسبب ما لم يتطوع أحدهم بمساعدتها ..

بدو ؟ إذن نحن فى دولة عربية ما ..

سمعت الجندى الفرنسى يقول وهو يحمل طفلين آخرين :

ـ « كانت فكرة حمقاء أن يخفوا الأسطول الفرنسى فى (أبو قير) ! »

إذن هى (أبو قير) ! وإذن نحن على مشارف الإسكندرية ..

* * *

كانت ترتجف .. ليس من البرد لكن من الصدمة العصبية ..

رأت أعرابيًا فارع الطول يتقدم منها فيخلع عباءته ويضعها على كتفيها .. قالت له فى حرج :

ـ « ميرسى »

قال وهو يعينها على المشى فوق الرمال :

ـ « أنتم أعداؤنا .. لكننا لا نرحب بقتال النساء ولا إيذائهن .. هذا الظرف يستدعى أن نزيح الخلافات جانبًا .. دعك من أنك غير مسئولة عن حماقات (صارى عسكر) .. معظم الجنود على سفنكم هذه لا يتجاوز عمرهم ثمانية عشر عامًا .. »

ـ « صارى عسكر ؟ »

ـ « الجنرال (بونابرطة) »

تذكرت الاسم فابتسمت ثم سألته :

ـ « ما اسمك أيها البدوى الشهم ؟ »

ـ « شريف !! »

نظرت له فى ذهول غير مصدقة أن يكون الأمر بهذه السهولة ، فقال لما رأى حيرتها :

ـ « (الشريف حسان) .. لكنهم يفضلون استعمال اسم (شريف) »

طبعًا .. لا تتصور بدويًا اسمه (شريف) إلا لو تصورت مصارعًا اسمه (شادى) أو مخبرًا اسمه (سامر) .. فكرت فى هذا وهى تشرب الشاى البدوى الثقيل الذى أعده لها ومن معها بينما الانفجارات تدوّى ..

سألته وهى ترشف الشاى :

ـ « ما هذا ؟ من يهاجم من ؟ »

نظر لها فى دهشة وقدر أنها تحت الصدمة العصبية .. فقال :

ـ « وأين كنت أنت ؟ على كل حال هذا هو البريطانى (نلسون) يهاجم أسطول (بونابرت) .. لقد أمضى نلسن ستة أشهر يفتش البحر المتوسط عن سفن (بونابرت) وهو متأكد من أن بونابرت فى مكان ما من هذا البحر .. أخيرًا وجده هنا فى (أبو قير) .. هذه فرصة سانحة قلّ أن يجد مثلها .. »

هنا دوى انفجار مروع يفوق ما سبق .. فتوقفا عن الكلام ونظرا إلى البحر..

البحر الذى استحال قطعة من الجحيم ..

* * *

13ـ أبو قير..

لكى نفهم ما حدث يجب أن نرجع للوراء عدة ساعات .. ربما أيام ..

كان (بونابرت) فى الإسكندرية فى هذا الوقت .. آخر يوليو من عام 1798 .. وقد انتوى أن يتجه إلى الصالحية ؛ لذا عهد بأسطوله إلى الجنرال (بروى) .. وكانت تعليماته هى أن يخفى الرجل الأسطول فى خليج (أبو قير) .. كانت مهمة شاقة بالنسبة لطبيعة الخليج وصخوره .. لكن الرجل أنجزها ببراعة ..

كان جواسيس بونابرت قد أخبروه أن (نلسن) أميرال البحر البريطانى ينقب البحر المتوسط بعدسة بحثًا عن هذا الأسطول .. (نلسن) شخصية عجيبة مثيرة للجدل .. خاصة بعينه الوحيدة وساقه الوحيدة وكراهيته المجنونة للفرنسيين .. معنى أن يجد الأسطول الفرنسى أن يحوله إلى فتات ..

فيما بعد ألقى (بونابرت) ـ كعادة القادة ـ مسئولية كل ما حدث على الجنرال (بروى) .. فى الواقع كانت هذه كلها أخطاء بونابرت .. فقد كان بوسعه أن يرسل الجيش إلى مكان أكثر أمنًا فتشه البريطانيون من قبل هو جزر (كورفو) ..

لكن (بروى) ارتكب خطأ عندما ترك مسافات واسعة بين السفن وبعضها ، وبذا سهل حركة الالتفاف حولها والمرور بينها على الأسطول البريطانى ..

ثلاث عشرة بارجة فرنسية تقف فى (أبو قير) .. كبط ينتظر الهجوم عليه ..

ظهر الأول من أغسطس تلقى الفرنسيون إشارة بأن 12 بارجة بريطانية تندفع نحوهم بسرعة البرق..

وظهرت السفن البريطانية فى الرابعة عصرًا والشر فى عيونها لو كانت للبوراج عيون ..

وعلى ظهر البارجة (فانجارد) عرف (نلسن) أن الأسطول الفرنسى فى (أبو قير) ..

يبدو أن هذا ضاعف شهيته للطعام فطلب طعام الغداء له وضباطه ..

ثم رفع كأسه وقال للضباط المحيطين به العبارة التى صارت شهيرة جدًا :

ـ « يا سادة .. بإذن العلى القدير سيشهدنى الغد فى مجلس اللوردات أو سيشهد جنازتى فى كنيسة (وستمنستر) .. »

والحقيقة أن الغد لم يشهده هنا ولا هناك ، لكن الجميع نسوا هذا .. كان شعورهم هو شعور طفل ظل ينتظر قطعة الشيكولاته شهرين ، وهو يعرف بالضبط ما سيفعله بها ومن أين يفتحها وكل شىء ..

وقد خرج (نلسن) إلى السطح .. كان ضرسه يؤلمه فلم يستطع أن يهدأ لحظة .. هنا سمع بحارين بريطانيين يتكلمان وهما ينظران إلى الأسطول الفرنسى :

ـ « انظر يا (جاك) .. الفرنسيون .. عليهم لعنة الله .. إذا لم نقتلهم قتلونا ! »

شعر براحة تامة لسماع هذا ..

الحمد لله العلى القدير أن زرع كل هذا المقت للفرنسيين فى نفوس البريطانيين .. الفرنسيون الذين يأكلون الضفادع .. حتى أفعالهم اللغوية تثير الجنون .. هناك لكل فعل 654687 تصريفًا .. كيف يمكن أن تتذكر كل هذه العلامات المائلة فوق حرف e ؟ تبًا لهم !

بدأ يشعر بأن الفرنسيين هم ضرسه الملتهب .. سوف يصب كل حقده عليهم ..

* * *

كان (نلسن) متحمسًا .. لم يضيع الوقت فى استكشاف المنطقة قبل أن يصف سفنه فى خط قتال .. هذه هى التقاليد البحرية لكن حماسه جعله يتجاهلها ..

(بروى) كان مصابًا بالإسهال .. وهذا يجعل معركة (أبو قير) معركة بين الضروس الملتهبة والإسهال .. لابد أن الإسهال أكثر تأثيرًا على حكمة القرارات من الضروس لأن أغلب قرارات الفرنسى كانت خاطئة ..

عند المساء تسابقت البارجتان البريطانيتان (زيلوس) و (جوليات) نحو الميناء .. تمكنت (جوليات) من السبق فتعالت صيحات البحارة مهللين فى مرح ..

رد الفرنسيون بصوت رفيق خائف محاولين الهتاف ، لكن المحاولة كانت مضحكة جعلت البريطانيين ينفجرون فى ضحك من طراز :

- « هع هع هع هااااع ! »

وتمكن قائد (جوليات) من أن يحشر نفسه بين السفينة الفرنسية (جوربيه) والساحل ..

- « هيييه ! رائع ! »

لم تكن هذه من البريطانيين ، ولكن من البدو الذين جلسوا على الشط يرقبون المعركة مهللين كأنهم يتابعون مباراة بين الأهلى والزمالك .. لابد أن المشهد كان رائعًا ..

هنا وجد قائد (جوليات) نفسه أمام سفينة فرنسية بحجم صفحة هذا الكتيب .. فرقاطة فرنسية (كتكوتة) هى (سيريوز) تحمست للقتال وأطلقت مدافعها على (جوليات) فلم تحدث سوى خدش ..

صاح قائد (جوليات) بصوته الفظ الخشن :

- « أغرقوا هذا الحيوان ! ماذا يفعله هنا ؟ »

على الفور ضربت دفة (جوليات) الفرقاطة فأرسلتها إلى القاع ..

كانت السفن البريطانية الآن بين السفن الفرنسية .. بالتالى صار بوسع كل سفينة أن تطلق مدافعها على سفينتين فرنسيتين فى الوقت ذاته .. أما سفن المؤخرة الفرنسية فكانت الريح تمنعها من اللحاق لنجدة زميلاتها ..

ألف مدفع يهدر بلا انقطاع .. لذا صار الوميض يعمى العيون .. والدخان يتصاعد إلى القمر نفسه ..

فى بعض اللحظات تم تبادل النيران بالمسدسات عبر السفن المتلاصقة ..

كانت السفن فى ذلك العصر تحمل النساء .. وهو ما يفسر لنا وجود (عبير) على السفينة الفرنسية (لوريان) .. ويفسر لنا كذلك كيف ولدت امرأة على ظهر السفينة البريطانية (جوليات) .. هذا أول طفل يولد على سفينة تتبادل القصف بالمدافع ..

هذا هو تقريبًا الوقت الذى هوت فيه قذيفة على (لوريان) فقتلت الجنرال (بروى) قائد الأسطول الفرنسى .. وهى القذيفة التى أيقظت (عبير) من نومها فى قاع السفينة ..

إن (لوريان) سفينة عملاقة ، وقد وصفها (الجبرتى) بأنها (القابق الكبير نصف الدنيا الذى وضع به الفرنساوية أموالهم وذخائرهم) ..

استسلمت (الكونكران) و(الجوربيه) للبريطانيين ، وجرح (نلسن) فى رأسه .. المشكلة هى أن الجرح جعل جفنه يسقط على عينه السليمة الوحيدة فلم يعد يرى تقريبًا ..

صاح وهو يفرد ذراعيه بحركة تمثيلية :

- « لقد قُتلت ! أنا شهيد ! تحياتى لزوجتى ! لقد اختار لى العلى القدير ميتة الأبطال »

لكنهم قالوا له إنه لم يمت بعد وإن عليه أن يكف عن الصراخ لحظة .. وحملوه إلى غرفة الجراحة حيث خاط له الطبيب جفنه ..

كل هذا والمعركة متبادلة بين الطرفين .. لا يمكن التنبؤ بالمنتصر ..

ثم بدأ كل شيء يتغير عندما اشتعلت نار بسيطة على ظهر القابق الكبير نصف الدنيا .. أقصد البارجة (لوريان) ..

سرعان ما تمكن البحارة من إخماد هذه النار .. هنا نجد اللعبة المعتادة لدى النيران : إنها لا تنطفئ كما تظن أنت أبدًا ..

بعد ربع ساعة وجد البحارة أن النار تغطى ظهر البارجة كله ..

ـ « مضخة الماء ! »

ـ « مكسورة ! »

ـ « أحضروا البلط ! »

ـ « إنها تحت الأنقاض ! »

ـ « الدلاء ؟ »

ـ « مبعثرة .. لا يمكن جمع عدد كاف منها .. »

ـ « عليكم اللعنة إذن ! »

كانت (عبير) على الشاطئ تراقب هذا الجحيم فى عرض البحر .. الحقيقة أنها لا تصدق إلا بصعوبة أنهم فى الليل .. وميض المدافع يحيل المشهد لحفل نهارى متواصل ..

رأت البحارة يقطعون الحبال التى تربط السفينة (تونان) بالبارجة (لوريان) لأن النار قد تصل لهم عبر هذا الحبل ..

وبعد ساعة من المناقشات وجد القوم أن السيطرة على النيران مستحيلة ، وأنه لابد من ترك البارجة (لوريان) لمصيرها .. لقد مات (بروى) على كل حال ..

هكذا وثب نحو مائة من الفرنسيين إلى قوارب النجاة .. بالطبع دون أن يحملوا جرحاهم ..

رأت (عبير) رجلاً عاريًا تمامًا يسبح حتى وصل إلى الشاطئ ، ثم بدا أنه تذكر شيئًا فعاد إلى السفينة المشتعلة .. هل سيحضر ما يستر به عريه ؟ لا ..

لقد عاد سباحة إلى الشاطئ وقبعته بين أسنانه !

كانت تعرف ولع الغربيين بالقبعات ، لكن ليس لهذا الحد ..

حينما خرج من الماء رمى له البدو بما يستر عريه ، بينما أشاحت هى بوجهها ..

قال له الشريف (حسان) فى خشونة :

ـ « أنتم أعداؤنا .. لكننا لا نرحب بقتال النساء ولا إيذائهن ، وأنت تبدو لى شبيهًا بالنساء .. هذا الظرف يستدعى أن نزيح الخلافات جانبًا .. دعك من أنك غير مسئول عن حماقات (صارى عسكر) ..

هتفت (عبير) فى الفرنسى مغتاظة :

ـ « لابد أنك مجنون .. القبعة فى هذه الظروف ؟ كان الأجدر أن تجد ما تستر به عريك .. فكر فى كرامة الجمهورية .. فيف لا فرانس .. فيف لا ريبابليك ! »

قال فى حماس وهو يلتف بالجلباب البدوى الواسع :

ـ « أنا الملازم أول (شيرى) .. لست مجنونًا أو من هواة الاستعراض .. لكن القبعة هى الشىء الوحيد الذى يثبت لقواتى وللبريطانيين أننى ضابط ! »

(شيرى) ؟ هذا غريب ..

بما أن الحرف الأخير يتم تجاهله لدى الفرنسيين على الأرجح ، فما هى الطريقة التى يلفظون بها اسم (شريف) يا ترى ؟

أشار لرأسه وقال فى فخر :

ـ « لا شىء مثل سرعة البديهة وقت الخطر .. إن ما فى رأسى ليس عقلاً لكنه جهاز كمبيوتر »

جهاز كمبيوتر ؟ هل كان هناك وجود لهذه الكلمة عام 1798 ؟

* * *

14ـ قد تموت الأفاعى من سموم العقارب ..

انفجرت البارجة (لوريان) ..

أضاء وميض الانفجار (رشيد) و(الإسكندرية) .. ربما يزعم المبالغون أنهم رأوا الوهج فى اليونان أو إيطاليا .. لكنى أعتقد أن هذا سخف ..

كان الانفجار عبقريًا هو خليط من الأخشاب والأشلاء والنيران والمسامير والحبال والدخان والذخيرة الباقية ..

وفجأة ولسبب مجهول توقف القتال نحو عشر دقائق ولأول مرة منذ ساعات .. كأن رهبة المشهد جعلت الجميع عاجزين عن عمل أو قول شىء ..

غاصت البارجة (لوريان) وعليها تماثيل من ذهب وفضة وصناديق آثار سرقها الفرنسيون من كنائس مالطة .. ولسبب كهذا سوف يبقى خليج (أبو قير) مكانًا محببًا للغواصين الباحثين عن كنوز ..

وقف (شيرى) على الشط ونزع قبعته فى أسى احترامًا للزملاء الذين حملتهم (لوريان) إلى القاعة ..

(عبير) المحظوظة التى رأت الكثير فى مغامرتها ، تذكرت على الفور مشهد غرق (أريزونا) فى مياه (بيرل هاربر) ..

* * *

قائد السفينة الفرنسية (تونان) راح يواصل القيادة وقد فقد ساقيه وذراعيه .. هذا المقاتل النبيل يدعى (دوبتى توار) قد تحول إلى جذع لا أكثر يصدر التعليمات ..

ثم رأى أنه ينزف بغزارة .. فقال :

ـ « لعلى أفقد حكمتى مع دمى .. ولسوف أفقد القدرة على القيادة الحكيمة .. »

ثم صوب المسدس على رأسه وأطلق الرصاص ..

عرفت (عبير) بهذه القصة من البحارة العائدين إلى الشط فقالت فى دهشة :

ـ « كيف أطلق الرصاص على رأسه ما دامت ذراعاه بترتا ؟ »

نظر لها البحار الذى أخبرها بالقصة فى دهشة ثم راح يتكلم فى مواضيع أخرى .. الحقيقة أن التاريخ يحتاج إلى تدقيق ؛ لأن أمورًا كثيرة تبنى على مثل شهادة هذا البحار المذعور الراغب فى كسب الاهتمام ..

إنها الثالثة صباحًا ..

يبدو أن البدو قرروا أن كرمهم تجاوز الحد ، لذا بدءوا يمارسون هوايتهم فى خطف الفرنسيين وقتلهم .. لا يمكنك أن تعفو عن 300 جندى فرنسى على كل حال ..

قال لها الشريف (حسان) :

ـ « قد تموت الأفاعى من سموم العقارب .. هذا شطر من بيت شعر عربى شهير .. »

ـ « لا أفهم .. »

ـ « هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل .. لكننا تمنينا لو قضى الأسطولان على بعضهما .. أما وقد انتهى الأمر فإننى أطلب الإذن للقيام بواجبى .. سنخطف بعض الفرنسيين كما هى العادة .. »

ـ « أوه .. إننى افهم ذلك .. »

ـ « إذن أرجو أن تسامحينى .. أنت تتفهمين الأمور طبعًا .. سنبدأ بك ! »

وهكذا وجدت نفسها مقيدة بالحبال تقاد إلى خيام البدو .. ليست أبشع نهاية ممكنة إذا قورنت بالاحتراق فى عرض البحر ..

على كل حال لقد فقد الفرنسيون معظم سفنهم بين انفجار وغرق واستسلام .. خسارة الإنجليز فادحة لكن لم تغرق أية سفينة لهم ..

وفيما بعد سيلقى بونابرت بلوم كل ما حدث على (بروى) وعلى ربانى السفينتين (جوربيه) و(كونكران) .. سوف يكتب لحكومة الإدارة فى فرنسا تقريرًا يتهم فيه (بروى) بكل شىء تقريبًا ..

فهو أحمق مارق مخالف للأوامر متمرد جبان وغد .. وينهى التقرير بـ (لقد أحسن صنعًا إذ مات) .. كتب هذا التقرير ومعه كتب خطاب تعزية لأرملة (بروى) التى هى (زوجة صديقى) ..

ولخص الموقف قائلاً : « لا يمكن اعتبار سلوك (نلسن) فى (أبو قير) مثلاً أعلى ، لكنه وبحارته أظهروا أقصى ما عندهم من مهارة وجهد، بينما أظهر الأسطول الفرنسى ما يماثل هذا عجزًا وجبنًا ! »

نعم .. كان الفرنسيون جبناء .. مات منهم أميرال وثلاثة ربابنة و1700 بحار .. وجرح عدد مماثل منهم .. لكنهم جبناء برغم كل شىء ما دام (بونابرت) أراد ذلك ..

أما (نلسن) فقال :

ـ « لقد بارك العلى القدير جيوش صاحبة الجلالة »

كأنه كان ينفذ أوامر العلى القدير عندما مزق 4000 جثة منها النساء والأطفال .. لقد مات 218 بريطانيًا وجرح 677 .. ودفن القتلى فى الجزيرة التى تعرف اليوم باسم (جزيرة نلسن) ..

الخليج الهادئ صار بحيرة من الجثث الميتة والدماء والأخشاب المحترقة .. ولعدة أسابيع قادمة ستظل النيران مشتعلة فى المياه كأنها نصب تذكارى للمعركة ..

وعلى الشط وقف (نلسن) يستعرض الأسرى الذين بلغ عددهم 3200 أسير ..

مر بأول جندى فالثانى فالثالث ثم أصابه انهيار عصبى .. من المستحيل أن يوفر الطعام والمأوى لكل هؤلاء .. إنهم مصيبة هبطت على رأسه ..

لكن مزاجه السيئ راق أخيرًا عندما تلقى رسالة من حبيبته جميلة الجميلات (ليدى هاملتون) التى ما زالت أية صورة زيتية لها تخطف أنفاس من يراها حتى اليوم ..

ـ « لو كنت ملكة إنجلترا لرفعتك إلى رتبة الدوق .. صاحب الشرف الرفيع .. ماركيز النيل .. إيرل الإسكندرية .. فيكونت الهرم .. بارون التماسيح .. أمير النصر .. »

ابتسم واحمر وجهه لهذه الكلمات التى لن تستطيع (أم العيال) أن تقول ربعها ولو بعد ألف سنة .. وقدر فى سره أن العلى القدير راض عنه ..

لهذا نظر إلى الأسرى الفرنسيين وأصدر فرمان العفو :

ـ « أرسلوهم إلى الإسكندرية .. إلى الجنرال (كليبر) .. هم ليسوا مشكلتى .. »

* * *

كانت معاملة البدو لها حسنة ..

لا تنكر هذا ..

كان اختطاف الفرنسيين يتم بغرض الإزعاج – وهو الأعم – أو الحصول على فدية أو مبادلتهم .. وإن قدرت أنها باقية للأبد على الأرجح لأن أحدًا لن يبالى بدفع فدية لها .. وكانت تقضى أكثر أيامها مع نساء البدو فى خيامهن تتعلم كيف تصنع السلال أو تخض اللبن ..

فقط عرفت منهم أن الخبر الأسود بلغ بونابرت وهو فى الصالحية يوم 13 أغسطس .. لكن القائد الكبير قيم الموقف جيدًا .. لو حسب (نلسن) أنه سجن الجيش الفرنسى فى مصر فهو مخطئ .. هناك سفن كثيرة فى رشيد والإسكندرية .. دعك من أنه قرر أن يستولى على القاهرة .. إن اسم القاهرة له سحر خاص بينما اسم (أبو قير) لا سحر له .. هكذا عندما ذاعت أنباء هزيمة بونابرت فى (أبو قير) كانت أنباء الاستيلاء على القاهرة تقهرها وتقلل من أهميتها ..

أما آخر ما قام به بونابرت فهو أنه ألقى – كعادة العظماء – بالذنب كله على عاتق رجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه هو (بروى) ..

* * *

15- من هو؟

انحنى على ستار الخيمة الذى يغطيها ، وأزاحه جانبًا فصرخت نساء البدو مذعورات .. رحن يجرين والخلاخيل فى كواحلهن تصطك فتحدث صوتًا يضاف إلى الصراخ ..

هرع رجال البدو الملثمون حاملين سيوفهم وبنادقهم معتزمين تمزيق هذا المتسلل إلى أشلاء .. لكنهم رأوه واقفًا فى أناقة ويداه فى جيبيه فتراجعوا .. وقال أحدهم :

– « المرشد ؟ لو كنت أخبرتنا بقدومك بدلاً من هذا الظهور المفاجئ ؟ »

قال فى برود :

– « لا مشكلة .. سرنى أن رأيتكم متأهبين يقظين .. أين أسيرتنا الحسناء ؟ »

أطلت (عبير) من الخيمة .. لقد حان الوقت إذن ..

قالت له وهى تنفض الرمال عن ثيابها التى صارت خليطًا من ثياب أوروبية وثياب بدوية :

– « إلى أين ؟ »

قال لها فى جدية :

ـ « أولاً .. هل عثرت على (شريف) ؟ »

ـ « شكوك .. الكثير من الشكوك .. لكن لا يقين .. »

هز رأسه بما يعنى أن غباءها متوقع على كل حال ، ونظر فى كتيب صغير يحمله .. أقرب إلى مطويات الأماكن السياحية وقال :

ـ « الخطة بعد ذلك تتضمن غرق (الأرمادا Armada) الأسبانية .. هل أنت مستعدة ؟ »

ـ « وماذا لو لم أكن ؟ أنت من يعطى الأوامر هنا .. على الأقل مؤقتًا .. »

ـ « إذن هيا بنا .. »

* * *

كانا الآن يقفان أمام البحر حيث تقف سفن أسطول هائل ..

أسطول لم تر مثله من قبل .. لكن السفن عتيقة الطراز .. لو شئت الدقة لقلنا إننا نقف فى حقبة بين (ذات الصوارى) و(أبو قير) .. حقبة وسيطة .. والسفن ليست قديمة لدرجة الرومان وليست حديثة لدرجة البحرية الأمريكية .. لكنها تعرف هذا الطابع ..

ـ « ما هى الأرمادا ؟ إننى أعرف هذا الاسم »

ـ « لفظة أسبانية معناها جيش .. لكنها دخلت اللغات الغربية بمعنى (أسطول كبير) .. عامة كان الأسبان يطلقون على أسطولهم عبارة طويلة معناها (الأسطول الأعظم والأكثر توفيقًا) »

وحك رأسه ثم قال لها :

ـ « نحن الآن قرب ممر (دوفر) عام 1588 .. فيليب الثانى ملك أسبانيا أرسل جيشًا جرارًا ليعيد إنجلترا إلى الكاثوليكية بعد ما صارت بروتستانتية .. كما ترين هذه حرب تبشيرية أخرى .. وبالطبع تحظى بتأييد كامل من بابا الفاتيكان .. بالنسبة له تعتبر إنجلترا دولة مارقة كافرة إذن المواجهة بين سيدى البحر إسبانيا والبرتغال ضد إنجلترا وهولندا »

ثم راجع الأرقام فى يده وقال :

ـ « هناك 18000 جندى و7000 بحار أسبانى اتجهوا للقتال الانجليزى .. انتظرهم 30000 جندى أسبانى للاشتراك معهم .. الهدف نقل جيش من 65000 جندى إلى لندن ..

سألته فى حذر :

ـ « جميل .. لا أريد استباق النتائج لكنى أريد معرفة الفريق الخاسر .. المفترض أن يكون (شريف) بين بحارته حسب كلامك الشبيه بنبوءة العرافين »

ـ « قلت لك إن الحدث هو غرق الأرمادا .. لا يمكن أن يكون الأسطول الغارق هو المنتصر لو أردت رأيى .. فى الحقيقة يبالغ البريطانيون فى تضخيم هذا النصر .. التدقيق التاريخى يكشف أن المعركة نفسها لم تدمر الكثير من السفن الأسبانية .. من بين 167 سفينة لم يغرق سوى 3 ، فقط تكفل الطقس الردىء والأعاصير بإغراق نصف عدد السفن الأسبانية .. لهذا هناك مبالغات حول أهميتها .. لكنها مهدت الطريق لهزيمة أسبانيا الكاملة عام 1604.. هكذا صار البحر ملكًا لبريطانيا وفرنسا »

ثم عاد يراجع الأرقام :

ـ « إنجلترا خسرت الكثير من البحارة فيما بعد .. حوالى 8000 بحار هلكوا لكن ليس بيد الأسبان لكن بيد الزحار (الدوسنتاريا) .. فى كل مرة يبرهن المرض على أنه أقوى من أى جيش فى العالم .. »

قالت وهى تتهيأ للانطلاق :

ـ « جميل .. هيا بنا .. (شريف) موجود فى الأسطول الأسبانى إذن .. هذا واضح »

لكنها فوجئت بأنه ما زال واقفًا يرمقها فى خبث ..

سألته :

ـ « ماذا بك ؟ »

ـ « هل حقًا لم تجديه بعد ؟ »

ـ « بالطبع لم أجده .. مجرد شكوك .. »

جلس على صارية ووضع ساقًا على ساق وقال :

ـ « فكرى معى .. استرجعى شكوكك أيام (بيرل هاربر) .. »

قالت مذعورة :

ـ « أنت قلت إنها خطأ وإن (شريف) ليس فى القصة .. »

ـ « لم أزعم العكس .. لكن أرجوك أن تتذكرى .. »

قالت وهى تحاول التذكر :

ـ « كان هناك (توم) .. لم يكن يشبه (شريف) .. لكنه قال عبارة موحية هى (أتمنى لو وجدت جهازًا يمنحنى القدرة على النوم بلا كوابيس .. ربما أريد جهازًا يمنحنى أحلامًا جميلة ..) .. ربما كان يلمح إلى (دى جى) .. أنت تربكنى الآن .. »

قال المرشد كأنه (شيرلوك هولمز) :

ـ « كان موحيًا لكنه كان يعمل تحت إمرتك .. كنت أنت رئيسه .. أعتقد أن هذا يضعف الاحتمال نوعًا .. وماذا عن (أكتيوما) ؟ »

قالت محاولة التذكر :

ـ « فى أكتيوما كان هناك ذلك البحار الوسيم الأسمر الذى يحب (شرميون) .. لكن لم يكن له دور على الإطلاق .. مجرد كومبارس ..

ثم قابلت (أكتافيوس) .. قال لى كلمة موحية أخرى هى (فقط فى عالم الأحلام يمكن لن يهزم (أكتافيوس) .. تذكرى هذا يا صغيرة .. إن عبير النصر يزكم أنفك) .. لماذا تحدث عن الأحلام مع وصيفة لا أهمية لها ؟ .. لماذا استعمل لفظة (عبير) ؟ »

قال المرشد :

ـ « فعلاً احتمال قوى .. لو كان شريف متنكرًا فى فانتازيا فلسوف يكون (أكتافيوس) الإمبراطور المغرور .. هكذا ستتخيلينه .. وماذا عن (ذات الصوارى) ؟ »

قالت وهى تمعن التفكير :

ـ « لم تكن هناك تلميحات .. لكن التلميحات كثرت مع (أبو قير) .. البدوى نفسه كان يدعى (شريف) ثم اتضح أن اسمه الكامل هو (الشريف حسان) .. هناك ذلك الضابط الفرنسى العارى الذى أصر على استرداد قبعته .. إنه يدعى (شيرى) .. فقط بقى حرف واحد على (شريف) .. ثم إنه وصف رأسه بأنه كمبيوتر آدمى قبل أن يسمع العالم عن لفظة كمبيوتر .. »

قال المرشد :

ـ « من الصعب أن ترى (شريف) عاريًا .. هو من الطراز الذى يفضل الموت على أن يراه أحد فى وضع غير لائق .. الكلام عن الكمبيوتر محاولة تضليل لا أكثر »

قالت فى غيظ :

ـ « إذن هو ما قلته .. لم يوجد (شريف) فى أية قصة .. إن هى إلا حجة أدخلتنى بها فانتازيا فى كل قصص غرق الأساطيل فى التاريخ .. ولا شك فى أن قصة الأرمادا لن تفيد كثيرًا »

قال المرشد :

ـ « بالعكس .. كان شريف موجودًا فعلاً .. وكانت هناك علامة مهمة .. القصة الوحيدة التى لم تتلق فيها تلميحًا .. ألم تسألى نفسك عن السبب ؟ (شريف) كان فى قصة ذات الصوارى وأنقذك من الأسر .. كنت تحملين نحوه عاطفة متناقضة بين مقتك له لأنك عربية ، وحبك له لأنه أنقذك .. هذه هى عاطفتك نحو (شريف) بالضبط .. إنه البطل والوغد معًا .. »

هتفت فى ذهول :

ـ « (شريف) هو (فيريس) ؟ »

ـ « لو فكرت فى هذا الاسم الغريب الذى لا يحمل أى طابع رومانى لفهمت .. اسمه كان يكتب FIREHS وهو هجاء مقلوب للفظة SHERIF .. »

غطت وجهها غير مصدقة .. يا للغباء !

قال لها المرشد :

- « على كل حال هذا يدل على أنك لن تجدى ما هو جديد فى قصة الأرمادا .. لقد جعلتك فانتازيا تعيشين أحداث (بيرل هاربر) و(أكتيوما) و(ذات الصوارى) و(أبو قير) .. المرء لا يستطيع أن ينال كل شىء فى الحياة .. »

قالت له :

- « وماذا لو كنت قد عرفته ؟ »

- « ربما كان سيقدم لك الحل لتنفذيه بمعرفتك .. الآن لم يعد من مناص من أن تجديه فى عالم الواقع .. هذا لو شئت إنقاذ فانتازيا .. »

نظرت إلى البحر حيث ترامت سفن الأسطول الأسبانى ، وحيث بدأت الطلقات الأولى تخرج من المدافع .. كل هذا خيالها هى .. هى صنعته .. هذه هى فانتازيا وهى لا تنوى التخلى عنها مهما حدث ..

قالت وهى تبتعد دون أن تحول وجهها :

- « سوف أنقذها .. أعدك أننى سأفعل ذلك »

* * *

فى القصة القادمة تعانى (عبير) عقدة نفسية مستعصية ، ولا تجد حلاً سوى أن تلجأ لعون عدد من أطباء علم النفس يتزعمهم (سيجموند فرويد) نفسه ..

تمت بحمد الله



مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب



د. أحمد خالد توفيق

يوم غرق الأسطول

اللعبة هي البساطة ذاتها .. على (عبير) أن تجد (شريف) .. لكنها لن تبحث عنه في الشارع أو في حجرات المنزل .. سيكون عليها أن تخوض لحظات تاريخية دامية وسط قذائف تنهال من السماء ، وطائرات مقاتلة لا تتورع عن شيء ، وسفن تغرق بعد ما احترقت .. أساطيل تلتحم وأطراف تطير ، وخليط عجيب من (جيندا) و (قنسطنطين) و (بونابرت) و (أجريبا) ... عليها وسط هذا كله أن تبقى حية وأن تجد (شريف) بشكل ما ..

العدد القادم

هي والأنا !

الثمن في مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

